13 me Année No. 601

Lundi - 8 - 1 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٨٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٣٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

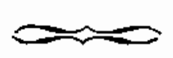
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ٦٠١ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٤ محرم سنة ١٣٦٤ — الموافق ٨ يناير سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

الفهـــرس

اذكروا يا زعماء العرب!



اذكروا وأنتم اليــوم بسبيل التشاور فى تجديد وحدة العرب أن الركن الأول من أركان دينكم هو التوحيـد ، وأن العمل الأول من أعمال نبيكم كان المؤاخاة

اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ؛ واذكروا إحسان النبي إليكم إذ كنتم أشتاتاً لجمع شتيت شملكم فأقتم على وحدته مُلكاً وسلطاناً .

اذكروا لماذا نذكر صاحب الهجرة فى كل أذان وفى كل صلاة من كل يوم . هل نذكر اسمه مع اسم الله تعبداً به ؟

معاذ الله فما يكون الشرك غير هذا ؛ إنما نذكر الله ونذكر بعده محمداً كما تُذكر القاعدة ومعها المثل ، أو النظرية وبعدها العمل . لأن الله يوحي والرسول يبلغ ، ويأمر وهو ينفذ ، ويَشرع وهو يطبق . فذِكر الله استحضار لأوامره ونواهيه وتلك هي القدرة ؛ وذِكر الرسول استحضار لأفعاله وأقواله وتلك هي القدوة.

اذكروا أن الوحدة هي التي أمكنت العرب في الأمس البعيد من تراث كسرى قيصر ، وهي وحدها التي تستطيع في الغد القريب أن تنقذهم من ورّاث (موسو) و (هتلر)

قولوا للموقين منكم والمخلّفين عنكم : إن العصبية التي توسوس في بعض الصدور بالرياسة والسيادة والعزة إنما كانت في تاريخنا الحافل بالأحداث والعبر علة العلل في انشقاق العصا ، وانقسام الرأي ، وانحلال العقدة ، وانتشار الأمر ، وتعدد الدول . هي النُّعَرة[1] التي قالت يوم السقيفة : منا أمير ومنكم أمير . وهي الهامة[2] التي خرجت من قبر عثمان وظلت تصيح على دار الخلافة : نحن هاشميون وأمويون ! نحن قيسيون وعنبيون ! نحن علويون وعباسيون ! نحن عرب وشعوبيون ! نحن اثنتان وسبعون فرقة تتقاطع في الدين ، وتتمادى في الدنيا ، وتزعم كل فرقة منها أنها هي الناجية ! نحن ثلاثة خلفاء في وقت واحد : عباسي على عرش بغداد ، وأموي على عرش قرطبة ، وفاطمي على عرش القاهرة ، ولكل خليفة منهم شأن يغنيه ، وعدوان مع الباغين على أخيه !

اذكروا كل أولئك يا زعماء العرب واستاروا بسيرة نبيكم في السياسة ، واستنوا بسنته في الحكم ، فإن محمد بن عبد الله الذي آثر أن يكون نبياً عبداً على أن يكون نبياً ملكاً قد ساس الناس في عهده سياسة دينية لا تفرق بين علي وبلال ، ولا بين قريش وباهلة . لم يسمهم عليه السلام سياسة وطنية ، لأن الوطن محدود والدين لاحد له . ولم يسمهم سياسة قومية ، لأن القوم جماعة متميزة لا تعرف العموم ، والدين إنسانية شاملة لا تعرف الخصوص . ومن كان مدينا بزعامته لربه لا لحزبه كان خليقاً أن يساوي بين الناس جميعاً في عدله وفضله . أما وقد استشرت العصبية ففرقت شعبنا فرقا لكل فرقة طرزٌ ورسوم ، ومزقت وطننا مِزَقاً تفصل بينها مكوس وتخوم ، فإنا أحرياء بأن نصلح الأمر بما صلح عليه أوله : نخفت في نفوسنا صوت الأثرة ، ونسكّن في رءوسنا عصف الهوى ، ونجدد في أذهاننا ما طمس من معاني الإيثار والإخاء والفداء والمروءة ، ونحدد في أفهامنا ما انبهم من هذه المبادىء الإسلامية الصريحة : « إنما المؤمنون إخوة » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، الناس سواسية كأسنان المشط .

وتلك هي المثلُ العليا للسلام والنظام والحكم تطلبها الشعوب المكروبة المسخّرة بالثورة بعد الثورة ، وبالحرب عقب الحرب ، فيحول بينها وبينها تصادم القوى وتعارض المنافع .

* * *

لا نطمع في أن نجعل من الوطن العربي الذي قطّعه القاسمون الآكلون دويلات أو لقيمات يسهل ازدرادها ، وحدة كاملة . ذلك فوق الطاقة الآن ، لأنه عمل لم يقو عليه من قبلُ غير محمد ، ولن يقوى عليه من بعد غير رجل من رجال محمد . هو الرجل الذي ينتظره العرب انتظارهم رجعة الربيع ؛ ثم لا ينفكون يحدقون النظر العبران[1] في الأفق القاتم يرجون أن تنشق الحجب عن ظهوره . ويحسبنا اليوم أن نمهد أمامه الطريق ونهيء له النفوس بهذه (الجامعة العربية) التي تتوافدون إلى عقد ميثاقها في القاهرة . فإذا أقمتموها يا زعماء العرب على الإيمان الصادق والنية الخالصة كانت إرهاصا لظهور ذلك الزعيم العظيم الذي يجمع الله لكم فيه الراعي الذي يطرد الذئب ، والنظام[2] الذي يجمع الحب ، والدليل الذي يحمل المصباح ، والقائد الذي يرفع العَلَم ، والأستاذ الذي يعلمكم أن تمنعوا الإبرة والمدفع ، وتشقوا المنجم والحقل ، وتوفقوا بين الدين والدنيا ، وتلاءموا بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة ؛ ويومئذ تعودون إلى منزلتكم من صدر الحياة ومكانتكم من قيادة الناس .

احمد حسن الزيات

(١) النعرة ذبابة زرقاء طنانة تدخل في أنف الحمير والخيل فتطرب وتهيج ، وتستعمل في الخيلاء والكبر

(٢) الهامة في أساطير العرب الأولين طائر يخلق من رأس القتول ولا يزال يصيح في رأسه يقول : اسقوني ، اسقوني ، حتى يقتل قاتله

(١) العبران : الباكي الحزن .

(٢) النظام : الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ ونحوه .

وحي الهجرة في سياسة الأمم والشعوب

لصاحب الدولة الدكتور أحمد ماهر باشا

قال صاحب الدولة الدكتور أحمد ماهر باشا وهو الرجل الذي ندبه العون الإلهي ليكون الوزير الأول لمصر في تلك الحقبة من تاريخ يموج بالهول ، وتفور أرضه بالحمم ، وتمطر سماؤه بالصواعق — ومصر — قلب العربية ، وأمل شعوبها ، تضطلع بأعبائها وأعباء جيرتها ، وقد أخذتها الأحداث ، وأحاطت بها التبعات ، وتقاذفتها الأهواء ، فإذا « بالفاروق » أعزه الله يحمله على شؤون البلاد ، يقيم الميل ويرد على الوطن هيبته ، ويسير في المعترك العالمي على بصيرة من الأمر ، وعلى هدى من الحق.

قال هذا الرجل ، وهو يتحدث عما (توحيه الهجرة) في وجدان الرجل السياسي :

« يوحي يوم الهجرة أنه لا حياة للأمم ولا للشعوب ، إلا بالجهاد الدائم ، والكدح والدأب المتواصل . وليس الجهاد قاصراً على مكافحة الأعداء ، بل أشد الجهاد ، وأعنف الجهاد ، مكافحة الشهوات والأهواء

فلقد رجع محمد رسول الله من بعض غزواته المظفرة فقال : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ـ جهاد النفس والهوى ـ

تذكرنا يوم الهجرة بأن الإنسان لا يحمي إنسانيته ـ بل عقيدته ـ إن هو أقام على الهوان راضياً ، وإنما حق إنسانيته وواجب عقيدته أن يكافح الطغيان ، وأن يصرخ في وجه الظلم ، فإذا أعجزه أن يحمي عقيدته وإنسانيته فليهاجر بهما حتى يبلغ مأمنه ، ثم يستأنف جهاده ونضاله

وإن الله لن يرضى أبداً عن الذليل المستضعف في الأرض ، وهذا كتاب الله يحقّر المستضعفين ويؤنب الأذلاء

يقول تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »

يوحي يوم الهجرة ، بصور لأولئك الذين أنجبهم الإسلام ، وهذبتهم فضائله ، فأحسنوا القيام على أممهم وشعوبهم ، وقدروا الأمانة التي ائتمنهم عليها حق قدرها ، فلم يقربوا إلا لوجه الحق ، ولم يمدوا إلا في سبيل الحق

وهذا عمرَ الفاروق يقول لولاته : اجعلوا الناس في الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم

إياكم والرُّشا ـ فإنها السحت ـ وإياكم والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب »

* * *

وإني إذا ما روّيت في الأمر ، وفكرت لم كان اختيار الهجرة بدءاً للتاريخ الإسلامي ؟ لا ألبث أن أقتنع ـ على بينة من الأمر ـ أنه يراد أن يكون المسلمون دائماً على ذكر من الحقيقة الخالدة ، وهي أن سبيل الرفعة وطريق العزة ـ الجهاد الجهاد للحق الخالد والعدل السرمدي

وإنه لمن يمن الطالع أن يكون على عرش مصر الملك الفذ ، « فاروق الأول » ؛ فهو الأسوة الحسنة لشعبه وللشعوب الإسلامية . أعز الله ملكه ، ونضر عهده ، وحقق في أيامه مجد الإسلام وعزة المسلمين .

(م)

طوالع الإسلام

للأستاذ عباس محمود العقاد

اسم كتاب ألفه الدكتور لورنس براون أستاذ مقارنة الأديان بجامعة مانشستر ، ونشره في أوائل السنة الماضية ١٩٤٤ وعرض فيه لحركات التجديد والإصلاح التي ظهرت منذ القرن الماضي في أنحاء العالم الإسلامي من الهند إلى إيران ومصر ، وما يليها من الأقطار الأسيوية والإفريقية

وقد خرج من هذا العرض بخلاصة يسهل على الباحث من غير المسلمين أن يقبلها ، ولكن لا يسهل قبولها على المسلم الذي يؤمن بدينه ويعرف ما فيه من قوة على بعث العزائم وإحياء الأمل ومزج الحديث بالقديم أو التقريب بين العقيدة والمعرفة وبين الأصول الدينية والأصول العلمية . فإن الخلاصة التي خرج بها الدكتور براون من عرضه أن الأمل في نهوض دعوة إنسانية تنفع البشر كافة من أعماق الروح الإسلامية ضعيف ، وإنه لا يُرى في العصر الحاضر زعيم من الزعماء الروحانيين في الأقطار المحمدية خليق أن يحمل أعلام النهضة المرجوة ، أو يقود بني الإنسان في طريق الصلاح والتهذيب ، ليحل لهم المشكلات الروحية والاجتماعية التي تواجههم عند كل خطوة يخطونها في حياتهم العصرية

وتعليل هذا اليأس من مستقبل الإسلام عند الدكتور براون – أو من طوالعه كما سماها – أن الإسلام يعزل الدنيا عن الروح الإلهية ، ويجعل الوحي الذي يقود الأنبياء والملهمين عملاً خارجاً عن الإنسان يهبط عليه من السماء بين حين وحين وقد انقطع هبوطه على البشر بعد خاتم المرسلين . ويزعم الدكتور براون أن شأن الإسلام في ذلك غير شأن المسيحية والموسوية ، لأن روح الله تمتزج بالإنسان في العقيدة المسيحية ، ولأن الموسوية أخرجت كثيراً من الأنبياء ونصت بعض آيات كتابها على تمني النبوة لجميع بني إسرائيل ليستمعوا من داخل سرائرهم إلى صوت الله . ويقول الدكتور براون إن الشعائر المادية في الموسوية والمسيحية إن هي إلا كناية عن المعاني الإلهية أو الروحانية التي ترمز إليها ، وليست هي كذلك في الإسلام كما يقول

والذي فات الدكتور أن المسلم الذي يعتقد أن الله خلق آدم على صورته لا يمكن أن تعوزه الروح الربانية ولا أن يجرد الإنسان من هذه الروح ، وأن الآيات التي وردت في القرآن عن روح الله والروح عامة أكثر من نظائرها في الكتب الأخرى التي قلما تعرض لكلمة الروح بالمعنى الذي يستفاد من نصوص القرآن

وقد فات الدكتور براون شيء أهم من ذلك كان ينبغي ألا يفوته لأن الدليل عليه قائم من أطوار الحركات الإسلامية التي أشار إليها في كتابه ، وذلك الشيء المهم الذي فاته هو أن الإيمان بنصيب الإنسان من الربانية أو بحلول المعاني الإلهية في الإنسان لم يكن قط مسألة نصوص مكتوبة وشعائر ملموسة ، وإنما هو مسألة فطرة تمتاز بها الأمم كما تمتاز بها الأفراد ، وقد نشأت عقائد الروحانية أو الإلهية في المسيحية من تفسير الفلاسفة والأحبار الذين آمنوا بالدين ولم تنشأ من الكلمات التي يقرأها كل إنسان في هذا الكتاب أو ذاك

وإن الدين الواحد لتؤمن به أمتان هذه غالية في الوقوف عند المحسوسات، وتلك غالية في المزج بين عالم الحس وعالم الغيب، أو في المزج بين الجسد والروح . وإن الكتاب الواحد ليقرأه الرجلان في مدينة واحدة – بل في بيت واحد – فيفهمه أحدهما

على طريقة المتصوفة أو القائلين بوحدة الوجود ويفهمه زميله كما تفهم الأوامر العسكرية كلمة كلمة وحرفاً حرفاً بغير تعليق ولا تأويل

ولو شاء الدكتور براون لفطن لهذه الحقيقة الواضحة من التفرقة بين الحركات التي أجمل الكلام عليها في الهند وإيران ومصر والحجاز ، وهي حركات القاديانية والبهائية ودعوة الإمام محمد عبده والإمام عبد الوهاب . فكل هذه حركات تجديد أو إصلاح نشأت في الإسلام وبين المسلمين واعتمدت على الكتاب الذي يدين به كل مسلم وهو القرآن الكريم ، ولكن الفرق بينها في الواقع هو الفرق بين فطرة الهند وفطرة الفرس وفطرة المصريين وفطرة العرب ، أو بين الأمزجة والعادات الذهنية التي تعودتها هذه الشعوب من موروثاتها القديمة وبيئاتها الفكرية والإقليمية

ففي الهند ظهر غلام احمد القادياني فبشر بمذهبه الجديد وزعم أنه هو عيسى بن مريم وهو المهدي وهو الإمام المنتظر في مذهب الشيعيين ، وادعى فيما ادعى أنه تلبس بروح مريم العذراء ثم تلبس بروح المسيح على نحو لا تدركه العقول ، وصدق نفسه وصدقه أناس من مريديه حين خيل إليه أنه روح الله حلت في جثمان إنسان لإنقاذ المسلمين والمسيحيين على السواء من الضلال

ومن اليسير جداً أن يلمس المرء في هذه الحركة بقية من بقايا البيئة الهندية التي نشأت فيها عقيدة تقمص الأرواح وتجدد الروح في جثمان بعد جثمان ، تارة جثمان ذكر وتارة جثمان أنثى ، ومرة رسم حيوان ومرة رسم إنسان

وفي البلاد الإيرانية ظهر مرزا علي محمد الشيرازي ، وزعم أنه الإمام المنتظر ، ثم انتحل عقيدة الاسماعيلية فيما يشبه القول بوحدة الوجود ووثب من ذلك إلى القول ببطلان الشريعة الظاهرة والأخذ بالحقيقة الباطنة التي تبيح أصحاب الحلول - حلول الإله في الإنسان - أن يتصرفوا في الأحكام والقواعد الدينية تصرف الوحي الجديد لأنهم يدعون مشيئة الله فيما يقولون ويعملون ، ثم جهر بإلغاء بعض الشعائر المقدسة التي اتفق عليها المسلمون سنيين وشيعيين حيثما صرحت بها نصوص القرآن

ومن اليسير جداً أن يلمس المرء في هذه الحركة نزعة البيئة التي نشأت فيها طلائع الباطنية والاسماعيلية ، بل نزعة البيئة التي نشأ فيها الإعلان بحلول أورمزد في جسد « مترا » رسوله الأمين في حربه الأبدية لإله الشر أهرمان

وفي الجزيرة العربيــة ظهرت الدعوة الوهابية التي تنكر الترف في الكساء والبناء ، وتبطل معاني الرموز والإشارات والتوسل بشيء من الأشياء يقع عليه الحس من جماد أو ذي حياة

ومن اليسير جداً على المرء أن يلمس فطرة الصحراء في هذه الصرامة الخلقية وهذا الفصل الحاسم بين عالم الحس وعالم الغيب ، خلافاً لتلك الأقاليم الهندية أو الفارسية التي امتزج فيها الحس بالتخيل واتصل فيها عالم الأرض وعالم السماء

وفي مصر ظهرت دعوة الإصلاح على يدي الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله فكانت تعليماً جديداً في مدرسة قديمة ، أو كانت تفسيراً للقوانين الإلهية لا يخرج بها عن نصوصها ولكنه يحفظها في تلك النصوص ويقتبس منها المعنى الذي يوافق معارف العصر الحديث

ومن اليسير جداً على المرء أن يلمس في هذه الدعوة روح مصر التي عرفت نظام الحكم منذ ألوف السنين ، وتعودت أن تدين بنصوص الأمر والنهي من ملك بعد ملك وأسرة بعد أسرة ، فليس فيما تعمله أو تدين به إلا ما هو نص محفوظ أو مستمد من تفسير النص المحفوظ بالمعنى الذي لا يخرج عليه ، أو هي روح مصر التي عرفتها منذ قام فيها بالنبوة فرعونها أخناتون ، وهي الأمة الوحيدة التي تلقت نبوتها من عرش وصولجان

فالحركات التي تتمثل فيها روح التجديد أو الإصلاح بين المسلمين حركات أقوام وطبائع تختلف بينها في العقائد الروحانية والربانية على حسب الفطرة التي طبعت عليهــا ، ولا تعوقها النصوص والكلمات عن اقتباس المعاني التي تتهيأ لها بفطرتها

وقد وقع خلاف كهذا الخلاف بين المسيحيين والموسويين يرجع إلى أسباب كهذه الأسباب من أثر البيئة الإقليمية أو البيئة الثقافية أو البيئة السياسية

فليس في الإسلام إذن ما يمنع نشوء الحركات الروحانية أو يمنع الاتصال بين روح الإنسان وروح الله ، وإن كان المسلمون يأبون أن تلغى نصوص كتابهم كما يأبى الكتابيون من المسيحيين والموسويين أن تلغي نصوص التوراة والإنجيل

وإنما أصاب الدكتور براون في رأي واحد وهو كلامه عن حاجة النهضة الروحانية إلى زعيم قدير ينفخ في الأمم الإسلامية

وغير الإسلامية من روحه القوية فينفعها وينفع البشر كافة من طريق نفعها

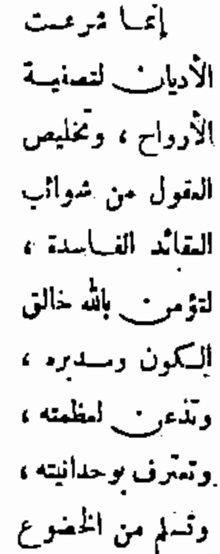
وقد شوهد أثر هذا الزعيم حين وجد، فإذا هو أثر عظيم قلما يشبهه أثر الزعماء المصلحين في الأمم الحديثة، فكان جمال الدين الأفغاني باعثاً لنهضات الإصلاح في الهند وإيران ومصر وتركيا وسائر الأقطار الإسلامية، وقد يخلفه زعيم مثله فيقترب الأمل الذي استبعده الدكتور براون لأنه لم ينظر إليه بعين المعلم الذي يستمد العزيمة من هذه الآمال

ومما لا شك فيه أن الإسلام اليوم قوة مانعة لكثير من الشرور التي تهب على الناس كافة من قبل المذاهب الهدامة التي تبنى على أساس المادية العمياء، وفي وسع هذه القوة المانعة أن تنطلق في سبيل الإصلاح قوة روحانية دافعة إلى الخير العميم، إذا قيض لها الزعيم العظيم

عباس محمود العقاد

سر الخلود في الشريعة الإسلامية

للأستاذ محمود شلتوت



إنما شرعت الأديان لتصفية الأرواح، وتخليص العقول من شوائب العقائد الفاسدة، لتؤمن بالله خالق الكون ومدبره، وتذعن لعظمته، وتعترف بوحدانيته، وتسلم من الخضوع والعبودية لكل ما سواه، وتتبع هداه وتسلك صراطه السوى فلا تضل ولا تشقى.

هذا هو الجوهر الذي قامت عليه سائر الأديان منذ عرفت الأرض هداية السماء، وهذا هو «الإسلام» الذي دعا إليه جميع الأنبياء، وهذا هو الوحي الذي أوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى به إلى نوح والنبيين من بعده، وهذه هي الوصية التي «وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

تختلف الشرائع وراء هذا الجوهر في التفاصيل: فصور العبادات ليست واحدة، وأنواع التكاليف متعددة، ودرجات التثقيل أو التخفيف متفاوتة، كل ذلك باختلاف الأمم والأحوال والأزمان «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم».

وقد قضت حكمة الله أن يظل هذا التدرج بالناس عصراً بعد عصر، ورسالة بعد رسالة، حتى تصل البشرية إلى مرتبة من النضوج الفكري والسمو العقلي، تتهيأ معه لاستقبال شريعة كاملة باقية، لا تنسخ بغيرها، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فكان ذلك في عصر محمد صلى الله عليه وسلم: اصطفاه الله لهذه الرسالة الكبرى بعد أن دعاه ورباه وصنعه على عينه، ثم انتزعه من بيئة الشرك والوثنية والكبر والعنجهية والثبات على الباطل الموروث إلى بيئة أخرى فيها صلاحية ولها استعداد لقبول دعوة الحق، فهاجر إليها مع صفوة من أهل الإيمان الراسخ، والولاء الثابت، يحبون الله ورسوله حباً لا تشوبه شائبة من أغراض هذه الدنيا، ويتسابقون إلى السمع والطاعة مخلصين راضين.

في هذا الجو الملائم، وبين الأنصار والمهاجرين، أخذ الوحي ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم بتفاصيل هذه الشريعة في العبادات والمعاملات والأخلاق، وأخذت جماعة المسلمين تتركز ويتكون قانونها العام، واستمر ذلك بالتدرج مدى عشرة أعوام هي حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، حتى أصبح العالم أمام دولة ناشئة قوية لها أحكامها الشاملة، ومبادئها القوية في كل شأن من شئون الحياة من بيع وشراء، ونكاح وطلاق، وميراث وهبة ووصية، وزكاة وصدقة، وقضاء وعقوبات وحرب وسلم وغير ذلك.

يومئذ أعلن القرآن في وضوح أن هذا الدين قد كمل كمالاً مطلقاً، وأن نعمة الله به قد تمت، وأنه قد ارتضاه لعباده فلا

يقبل منهم سواه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا » ؛ « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

بهذا تقرر ، وأصبح من العقائد الإسلامية ، أن هذا الدين خالد ، وأنه بعقيدته وشريعته طريق الصلاح والنجاة للناس فى دنياهم وأخراهم ، وأن العالم مهما طال به الزمن وامتدت به الحياة لايحتاج فى صلاحه إلى شىء وراء الاستظلال بظل هذا الدين ، والعمل بعبادته ، ومن هنا استقرفى الأذهان أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان .

ولكن ما سر هـذه الصلاحية التى استحقت بها شريعة الإسلام أن تكون هى الشريعة الخالدة ؟ وهل فى استطاعة الباحث أن يثبت ذلك فى صورة علمية واضحة يستوى فى النظر إليها جميع الناظرين ؟

ذلك ما نريد فى هذا المقال :

* * *

ليس على الباحث أن يستقصى جميع الأحكام التى جاءت بها الشريعة المحمدية حكما حكما ، ويتتبع ذلك فى كل جزئية من الجزئيات ، ليختبر مبدأ الصلاحية ويعرف مداه ، فإن هذا شىء يطول ولا يكاد يقف عند حد .

ولكن حسبه أن ينظر إلى مبدأ واحـد هو المحور الذى تدور عليه سائر الأحكام مهما تعددت وتنوعت ، وبيان ذلك : أن من يتأمل حالة العالم فى عصوره المتعاقبة وأطواره المتتابعة يعرف حق المعرفة أنه كان يتردد بين طرفين من إفراط وتفريط ، وكان ذلك شأنه فى كل شىء : فى العقائد ، فى الأخلاق ، فى صلة الإنسان بالحياة ، فى علاقة الفرد بالمجتمع ، فى علاقة الأمم بعضها ببعض ، فى طريقة التشريع ، إلى غير ذلك من سائر الشئون ، وقد جاء الإسلام فأدرك أن العالم لا يصلح بواحدة من هاتين الخطتين ، وأنهما منافيتان للفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية ، منافيتان لسنن الاجتماع التى تقضى بالوقوف عند الحد الوسط فى كل شىء لضمان البقاء والصلاح ، وعـدم التعرض للانحلال والفساد . أدرك الإسلام ذلك فجاءت شريعته وسطا لا إفراط فيها ولا تفريط ، ووقعت أحكامها ومبادئها مهما تنوعت وتشعبت فى هذه الدائرة التى رسمها كتاب الله عز وجل « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » ، « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » :

هى فى العقيدة وسط بين الذين ينكرون الإله ، ويزعمون أن هـذه الحياة الدنيا ليست إلا وليدة المصادفات والتفاعلات المادية « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » وبين الذين يقولون بالتعدد ، ويتخذون مع الله أنداداً : تقرر فى صراحة وجلاء أن الله إله واحد ، وأنه المعبود الذى لا يعبد سواه « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون » ، « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

وهى فى الأخلاق وسط بين الذين يتحللون من كل الفضائل وبين الذين يشتطون فى تصور الفضيلة والتزام طرف التشديد فيها : تقرر أن الفضيلة وسط بين رذيلتين : لا جبن ولا تهور ، لا بخل ولا تبـــذير ، لا استكبار ولا استخذاء ، لا جزع ولا استكانة . وأساس ذلك كله قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا » « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

وهى فى صلة الانسان بالحياة وسط بين المادية البحت ، التى لا تعرف شيئاً وراء ما يقع عليه الحس من طعام وشراب ولذات وشهوات وغلبة وبطش وجمع للأموال وتكاثر وتفاخر ، وبين الروحية البحت التى تزهد فى الحياة وتعرض عنها إعراضاً تاماً ، فلا زواج ولا سعى ولا عمل ، ولكن تبتل مطلق وإهمال للأسباب ! يقرر الاسلام فى ذلك الوسط أيضا فيقول « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » ، « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وهى فى طريقة التشريع ووضع قوانين الحياة وسط : لم تدع الناس يشرعون لأنفسهم فى كل شىء ، ولم تقيدهم بتشريع من عندها فى كل شىء بل نصت وفوضت : نصت فيما لا تستقل العقول بأدراكه ، كالعبادات زمانا ومكانا وكيفية ونحو ذلك ، وفيما لا تختلف المصلحة فيه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، كالمواريث وأصول المعاملات من بيع وشراء وتحريم لأكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك ، وفوضت فيما يدرك

العقل الخبير فيه وتختلف المصلحة فيه بتغير الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، ومن هنا وجد الاجتهاد وكان ركنا من أركان الشريعة الاسلامية حفظ الله به للعقل الانسانى كرامته .

وهى فى تحديد علاقة الفرد بالجماعة وسط أيضا : لم يترك الفرد طليقا يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء ولم تدعه كالوحش فى الفلاة يجرى ويمرح ويعبث ويفترس ما يقدر عليه ، ويتحكم فيه الأقوى منه ، ولم تلغ شخصه ، وتنس استقلاله ، وتضيعه فى غمار الجماعة لا يعمل إلا لها ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يعرف لنفسه وجوداً غير وجودها ، كأنه جزء من آلة يتحرك بحركتها ويسكن بسكونها ، ولكنها اعتبرته ذا شخصية مستقلة ، وفى الوقت نفسه اعتبرته لبنة فى بناء المجتمع ، فأثبتت له ، بالاعتبار الأول ، حق الملكية لماله ودمه والهيمنة على نفسه وولده ، ومنحته فى هذه الدائرة حق التصرف بما يراه خيراً له وسبيلا لسعادته فى حياته ، وأوجبت عليه بالاعتبار الثانى ، حقا فى نفسه بالخروج للغزو والجهاد فى سبيل رد العدوان عن الوطن ، وحقا فى ماله بالبذل والانفاق فى سبيل الله ، وأوجبت عليه إرشاد الأمة وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، وأوجبت عليه أن يعمل لإنجاب النسل الصالح وتكثير سواد الأمة به فيختار الولود ذات الدين والخلق ، لتقوى بذلك الأمة ويعلو شأنها

وفى مقابل هذه الحقوق التى قررتها الشريعة على الفرد للجماعة ، أوجبت على الجماعة للفرد حقوقا لاسعادة إلا بها : كفلت له حفظ دمه وماله وعرضه ، وشرعت لحمايته حق القصاص وحق الحد والتعزير ، وجعلت له حقا فى أن تمينه بمالها إذا افتقر ، وبذلك تبادل الفرد مع المجتمع الحقوق والواجبات ، وجعلت سعادة الحياة منوطة بالتعادل بين الجانبين ، وعدم طغيان أحدهما على الآخر : فلو ضن الفرد بنفسه أو ماله أو لسانه على المجتمع ساءت حالته وأدركه الضعف والانحلال ، ولو ضن المجتمع بقوته على الفرد فلم يكفل له سعادته ، ولم يحفظه فى ماله ونفسه وعرضه ، ولم يعنه فى حال فقره أضعفه وعرّضه للهلاك ، وبهذا وذاك تصبح الحياة عبئا ثقيلا لا يحتمل ، بل جحيما لايطاق !

وكذلك كان شأن الشريعة الإسلامية فى تحديد علاقة الأمة بغيرها من الأمم : لم ترض للمسلمين بحياة الضعف والذلة وأن يكونوا عزلا من القوة ينتظرون حطمهم ، ويترقبون مصيرهم ، وما تقرره الأمم الأخرى فى شأنهم ، ولم ترض لهم كذلك بحياة الظلم والاستبداد والفتك بالضعفاء والاعتداء على الآمنين فى أوطانهم وأموالهم ، ولكنها أمرت المسلمين بالاستعداد والتقوّى بالعدد والعدة « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وأمرتهم أن يدعوا إلى الله بالحجة والبرهان لا بالألجاء والقهر « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

ونظرت الى الحرب وأسبابها الداعية اليها والمقضية إلى شب نيرانها نظرة تتفق وغايتها من الصلاح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم على سنن العدل والرحمة ، فحصرت أسبابها فى دائرة معقولة تتناسب مع كونها ضرورة من الضرورات : دفع الظلم والعدوان ، وإقرار حرية التدين ، والدفاع عن الأوطان ، وإن القرآن الكريم ليرشد إلى ذلك فى عدة مواضع إذ يقول :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »

وأساس الدستور العام فى ذلك هو قوله تعالى « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »

وقد أباحت الشريعة الإسلامية أن ينشئوا ماشاءوا من العلاقات بينهم وبين الذين لم يعتدوا عليهم فى الدين أو الوطن من كل ما يرونه عونا لهم على حياتهم فى شئون التجارة والصناعة والعلم والسياسة والثقافة ، ينظمون ذلك كله على الوجه الذى يتبين صلاحه ، والذى تقضى به سنن الاجتماع والفطرة ، والذى لايتعارض مع دستورهم الخاص ، وقد أجازت الشريعة أن تصل هذه العلاقات إلى حد البر بهم والإحسان اليهم

وأساس الدستور العام فى ذلك هو قوله تعالى « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من ديارهم أن

تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »

* * *

هذا هو الصراط المستقيم ، والمبدأ الوسط ، الذى تسير عليه الشريعة الإسلامية فى جميع أحكامها ، والذى صلحت به لكل زمان ومكان ، واستحقت به الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

محمود شلتوت

وديعة مدينة سالم

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —



محمد بن أبى عامر شابٌ عربىٌّ آباؤه من معافر، وخؤولته فى تميم. دخل جدُّه عبد الملك بن عامر الأندلس فى جند طارق بن زياد . وارتقت بأسرته الأمور حتى عُدت فى أسر الوزارات فى الأندلس .

نشأ محمد نجيبا طموحا هُماما تبشّر مخايله بنباهة شأنه ، وتعِد همّته بعظيم مستقبله ، بل تكفل آماله سؤدده ، ويضمن عزمه مجده . يسهر ليله وهو طالب علم يفكر فيمن يوليه القضاء إذا آل إليه أمر الأندلس . والمرء حيث يضع نفسه .

سار من أعوان قاضى قرطبة محمد بن السليم ، ثم وكيلا لولى العهد هشام بن الحكم المستنصر ، وتداولت كفايته وحزمه المناصب إلى أن ولى شرطة قرطبة سنة إحدى وستين وثلثمائة فضبط الأمور وقمع الأشرار ثم دعاه النزق قلبىّ ، فاجتمعت له الشرطة وقيادة الجيش .

فأما حزمه فى الشرطة فقد قال صاحب البيان المغرب :

« فضبط محمد المدينة ضبطا أنسى أهلَ الحضرة من سلف من الكُفاة وأولى السياسة . ولقد كانوا قبله فى بلاء عظيم يتحارسون الليل كله . ويكابدون من رَوعات طُرّاقه مالا يكابد أهل الثغور من العدوّ . فكشف الله عنهم بمحمد بن ابى عامر وكفايته وتنزهه . فسدّ باب الشفاعات ، وقمع أهل الفسق والدعارات ؛ حتى ارتفع الباس ، وأمن الناس . وأمِنت عادية المتجرِّمين من حاشية السلطان حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره فى مجلس الشرطة وجلده جلدا مبرحا كان فيه حمامه ، فانقطع الشر فى أيامه جملة » .

وأما الغزو فكان قائده المظفر ، وبطله المجرَّب . وسيأتى حديثه .

ما زال ابن أبى عامر يرقى منصبا إلى منصب ، ويعلو مجدا إلى مجد كالنسر يعلو مرقبا إلى مرقب حتى يوفى على القنة . فلما توفى الحكم المستنصر وآل الأمر إلى طفله هشام اجتمع له الأمر كله وظفر بأعلى مناصب الدولة ، حجابة الخليفة . ثم وكله إلى ابنه عبد الملك وجعل له القيادة العليا وسائر مناصبه وجعل ابنه عبد الرحمن وزيرا . وسما هو إلى السلطان الأعلى . وتسمّى المنصور ، وأمر أن يكتب عنه « من المنصور ابن أبى عامر وفقه الله » ثم كتبَ إليه باسم (الملك الكريم) .

— ٢ —

ملك ابن أبى عامر الأندلس ستة وعشرين عاما ، يدبرّ شؤونها بعدله وعزمه ويعمرها ببره ، ويجمّلها بأبنيته، ويضرب أحسن الأمثال فى البأس الذى لا يخالطه جور ، والعدل الذى لا تشوبه هوادة ، والانصاف الذى لا يُعجز قريبا من بعيد ، والحكم الذى لا يعرف إلا النصفة والمساواة والنفاذ على كل الناس فى كل الأحوال .

ولم تكن سياسته العادلة الحازمة ، أعظم من قيادته المظفرة . حتى لقد جاوزت غزواته أقصى غزوات الناصر ، وحارب حيث لم يحارب قبله أمير من أمراء الأندلس .

غزا خمسين غزوة كانت الثامنة والأربعون منها إلى شنت ياقوب على البحر فى أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب، ولم يحاولها

قبله ملك عربي في الأندلس .

قال صاحب البيان المغرب :

« ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم يُنكب قط في حرب شهدها ، وما توجّهت قط عليه هزيمة ، وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً على كثرة ما زاول من الحروب ، ومارس من الأعداء وواجه من الأمم . وإنها لخاصة ما أحسب شركه فيها أحد من الملوك الاسلامية . ومن أعظم ما أعين به سعة جوده ، وكثرة بذله ، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان » .

— ٣ —

هذه سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة من الهجرة والمنصور بن أبي عامر يعزم على غزو جليقية في أقصى الشمال والغرب وهو مريض ولكنه كما قال أبو الطيب :

وقد علمت خيـله أنه إذا همّ وهو عليل ركب

سار من طليطلة إلى قشتيلة فأبعد الغارات فيها ، ودوّخ بلاد شانجه زعيم الأمراء المناوئين هناك .

وازداد بالبطل مرضه ، « فاتخذ له سرير خشب ودثّر عليه أعضاءه وسُوّي مهاده متطاول الشكل يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه ، وكان يُحمل سريره على أعناق الرجال وسجفه منسدل عليه ، وعساكره تحف به وتطيع أمره ...(1) وكانت تحمل سريره السودان الرقاصة للين مشيهم . بذلك قطع أربعة عشر يوماً حتى وصل إلى مدينة سالم »(1) .

— ٤ —

المنصور في قصره من مدينة سالم قد استولى على الأمد من مجده ، وأوفى على الغاية من عمره . ينظر إلى الحوادث الجسام قد اتخذها درجاً إلى المعالي ، ويتمثل الزمان رخاءه وشدته وسلمه وحربه . ويرى الأندلس كلها وأصقاعاً من المغرب طوع حكمه ، وتحت أمره ، ويشفق من تبعات هذا التاريخ المتطاول وأعباء هذا السلطان العظيم ويرى كل شيء وراءه ولا يرى أمامه إلا الموت . يقول :

(1) في أحد متاحف أوربا صورة ابن أبي عامر محمولا على سريره .

(1) ما بين القوسين منقول عن الذخيرة عن ابن حيان المؤرخ الأندلسي .

« إن زماني يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالاً مني . وددت أن أفال زَلّتي ، وأنا كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريري » .

وأخذ الرجل العظيم يوصي أمراءه وجنوده . وخلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه ويقبض على يده ، وكلما ذهب عنه استردّه مستدركا بوصيته . وعبد الملك يبكي فينكر عليه ذلك ويقول هذا أول العجز والفشل »(1) .

أوصى عبد الملك وصية الخبير المحنّك ، الأريب المجرّب . وأفرغ في أذنه وقلبه تجاريب عشرات السنين . ولم يترك عظيما من أمور مملكته وأسرته إلا بيّنه .

ثم أمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر ويعود هو إلى قرطبة ليتدارك أمور الملك .

— ٥ —

ابن أبي عامر في مدينة سالم في أقصى الجزيرة الأندلسية ، كالأسد أبعد في مسراه ، والنسر غالى في تحليقه ، يختم مجده مجيداً ، وينهي جهاده مجاهداً ، ويختم قصيدة ظفره ببيت رائع ، وسجل مجده بسطر بليغ ، قصيدة مطلعها الطموح ومقطعها الظفر وسائر أبياتها الهمة التي لا تقهر ، والعزمة التي لا تنثني ، وسجلّ مقدمته طموح طالب علم في قرطبة ، وخاتمته ملك حازم ، وقائد مظفّر ، ومجاهد غازٍ في أقصى الثغور .

ليلة الإثنين لثلاث بقين من رمضان عام ثلاثة وتسعين وثلثمائة وألف في مدينة سالم مات الرجل النابغة والعبقري الداهية . ودفن في قصره هنـاك . وكان أوصى أن يدفن حيث يقبض ولا ينقل تابوته . وأراد أن يجعل قبره في هذا الثغر القصي دعوة إلى الجهاد دائبة ، ومثلا في المجد سائراً ، وحرزاً على الثغور حريزاً ، ورباطاً على الحدود مشهوداً .

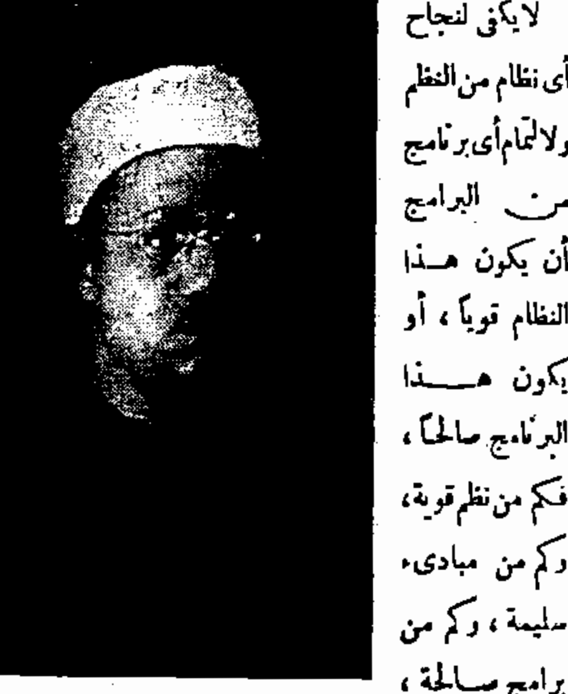
ليت شعري أين قبر المنصور من قصره من مدينة سالم ؟ بل ليت شعري أين تاريخ ابن أبي عامر من صدور شبابنا ، وكتب مؤرخينا ، وأقلام كتابنا ، وقصائد شعرائنا ؟ ! يا شعراء العربية من ينظم القصيدة الرائعة التي عنوانها : « وديعة مدينة سالم » ؟

عبد الوهاب عزام

(1) عن الذخيرة

الله أعلم حيث يجعل رسالته

للأستاذ محمد محمد المدنى



لا يكفى لنجاح أى نظام من النظم ولا لتمام أى برنامج من البرامج أن يكون هذا النظام قوياً ، أو يكون هذا البرنامج صالحاً ، فكم من نظم قوية، وكم من مبادىء سليمة ، وكم من برامج صالحة ، صرعها الدهر وعفى عليها الزمان ! ولكن أهم ما توطد به دعائم الإصلاح أن يعهد بالإصلاح إلى منفذين صالحين يفقهونه ويدركون أسراره ويعرفون مراميه وأغراضه ، وتساعدهم صفاتهم وطبيعة نفوسهم على تحمل تكاليفه ، والنهوض بتبعاته .

لذلك قضت حكمة الله ، وقد طبع شريعته الخالدة بطابع الوضوح والصفاء واليسر والرحمة ، أن يختار لها منفذاً ومطبقاً يكون له من الصفات النفسية ما لا يتنافر مع هذه الطبيعة ، بل ما يستطيع به أن يجارى روحها ويمضى على سننها ، وينفذ إلى صميمها ، فاختار لها « محمداً » صلى الله عليه وسلم ، و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

* * *

تمتاز هذه الشريعة بالصفاء والوضوح والصراحة فى مواجهة شؤون الحياة ، ومجانبة التعقيد والتكلف فى كل شىء :

عقيدة سهلة لا تستدعى من العاقل أكثر من النظر فى ملكوت السموات والأرض، بل لا تستدعى منه أكثر من النظر فى نفسه ليعلم أن له إلها قادراً حكيماً مبدعاً أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . عقيدة واضحة يدركها العامة والخاصة فى كل زمان ، وليست فى حاجة إلى فلسفة المتفلسفين ، ولا إلى تكلف المتكلفين ، لأنها « فطرة الله التى فطر الناس عليها » .

عقيدة تفتح أمام صاحبها آفاق الحياة ، وتجعله واثقاً من نفسه ، غير مستعين إلا بخالقه ، لا يعرف الخضوع والذل إلا لله الذى لا رب سواه .

وأحكام قوامها العدل والرحمة والتيسير على الناس ، وبث روح التعاون فيهم، واقتلاع أسباب الشر والخصومة من بينهم ، وتهيئة الحياة السعيدة لهم .

هذا الطابع الذى تمتاز به الشريعة الإسلامية ، والذى هو مزاج من الصفاء والوضوح ،والسهولة والتيسير،والرحمة والعدل، والصراحة فى مواجهة شؤون الحياة ، ومجانبة التعقيد والتكلف فى كل شىء هو بعينه الطابع الذى طبع الله نبيه ومصطفاه : نفس صافية . مزاج سليم . قلب رحيم . لسان عف صدوق . صراحة فى مواجهة شؤون الحياة. بغض شديد للنفاق والمنافقين. ترفع عن أساليب الختل والموازبة والخداع والدوران حول الأمور. تصرف عادل رحيم يبعث على الثقة ، ويوحى بالطمأنينة ، ويغرى بالقدوة ، ويحمل على الحب والإجلال !

كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

كان صافى النفس ، وقد ظهر أثر هذا الصفاء فى نواح متعددة من خلقه الكريم : فهو لا يحمل الحقد لأحد ، ولا يحب أن يفسد عليه أحد هذا الصفاء النفسى فيقول : « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر » .

وهو طبيعى فى صلاته بأصحابه يمازحهم ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذرين ، ويبدأ من لقيه بالسلام والمصافحة ، ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم إليهم ، ولا يقطع على أحد حديثه ، وما

دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال له لبيك !

وكان يكره التكلف ، وينهى عن التشدد والتزمت «ويأخذ العفو ويأمر بالعرف ويخفض جناحه للمؤمنين ، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل الناس بالتي هي أحسن ، ويميل إلى اليسر والسهولة في كل شيء : ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، وما سئل شيئاً عنده إلا أعطاه ، وما انتقم لنفسه قط ، وما نهر خادما ولا مملوكا » .

وكان سهلا إذا أخذ ، وسهلا إذا أعطى، متلطفا في ضروب الإحسان : يقترض فيرد أكثر مما اقترض ، ويشترى فيعطى أكثر من الثمن ، ويقبل الهدية ويكافىء عليها بأضعافها ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر ، وكانت الصدقة أحب شيء إليه ، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه . وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه تارة بطعامه، وتارة بلباسه ، وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السماحة والندى .

ولقد ظهرت آثار هذه الصفات الشريفة في سائر أحواله وتصرفاته صلى الله عليه وسلم ؛ وظهرت في سياسته الحكيمة التي ساس بها قومه ، وجعلها نهجا للحكام والرؤساء من بعده . وظهرت في تطبيقه لكتاب الله ، وتنفيذه لأحكامه . وظهرت فيما أوصى به أمته مما يتصل بالعبادات أو المعاملات أو الأخلاق :

ســـامه أعداؤه سوء العذاب ، واضطهدوه في نفسه وفي أصحابه ، ورموه بكل منكر من القول وزور ، وكانوا يضعون في طريقه الأشواك والأقذار ، ويطرحون عليه وهو يصلى جلود الأبل والبقر ؛ ويمنعونه وأصحابه أن يبيعوا لأحد شيئاً أو يبتاعوا، بل كانوا يتآمرون عليهم ، ويدبرون المكائد لهم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلقى ذلك كله منهم صابراً محتسباً نقيّ الصدر من الحفيظة ، سليم القلب من الموجدة ؛ بل كان يلقاه بالدعاء لهم فيقول (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون !)

ولقد خضبوا وجهه بدمه ، وكسروا رباعيته، وهو مع ذلك لا يدعو عليهم ، ولا يسأل الله تعذيبهم . ويقول : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً » .

ولقد أخرجوه من مكة وطنه الحبيب إلى قلبه ؛ وأخرجوا معه كل من اعتنق دينه ، فلما أظفره الله بهم وفتح له مكة حطم أصنامها ، وأزال أوثانها ثم خطب أهلها فقال : « يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم. قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولقد كان الرجل من العرب الجفاة الغلاظ يدخل عليه غير مستأذن ، ويناديه باسمه مجرداً يسأله عن شيء أو يقتضيه حقاً ، فيحلم عليه ويجيبه متلطفا في خطابه ، قاضيا حقه ، فإذا غضب له أحد من أصحابه رده عن غضبه ، وهدأ من ثورته . وقد أفضت هذه السياسة الرشيدة بكثير من أهل الكفر إلى الإسلام ، وأصبحوا بها من خيار المؤمنين !

وكان صلى الله عليه وسلم نعم المعلم لأصحابه : يردهم إذا أخطأوا في رفق وأناة ، ولا يعنف عليهم ، ولا يؤنبهم ، بل يبتسم لهم ، ويبش في وجوههم . حدّث معاوية بن الحكم السُّلَمى قال : كنت أصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعطس رجل من القوم ، ولم أكن أعرف أن الكلام يفسد الصلاة ، فقلت له : يرحمك الله ! فرماني القوم بأبصارهم يتعجبون مما فعلت ، فقلت : واثكل أماه ! ما شأنكم تنظرون إليّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم وينظرون إليّ متعجبين ، فلما رأيتهم كذلك سكتُّ حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته ، فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ! فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني ولكن قال : إن هذه الصلاةَ لا يصلح فيها شيء من كلام الناس . إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفق حتى على أهل الكبائر من أمته ، وقد أقام الحد على رجل فات فلعنه الناس وسبوه ، فقال لهم : لا تلعنوه ولكن قولوا : اللهم اغفر له. اللهم ارحمه ! وكان رجل يؤتى به إليه كثيراً وهو سكران بعد تحريم الخمر فلعنه الناس مرة فقال : لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله . فكشف لهم عما يعرفه من حقيقة نفسه ودخيلة قلبه لمّا رفضوه لظاهر فعله ، وإنما ينظر الله إلى القلوب !

وجاءه مرة رجل وهو يصلى ، فلما انتهى من صلاته قال له : يا رسول الله . إني أصبت حداً فأقمه عليّ ، فسكت عنه ، ثم عاوده

الرجل بعد حين فقال له مثل ما قال فسكت عنه ، ثم عاد إليه بعد صلاة الغداة فقال له : يارسول له إنى أصبت حداً فأقمه علىّ . فقال له : أصليت معنا هذه الصلاة ؟ قال : نعم . قال : فاذهب فإن الله غفر لك حدك !

وليس ذلك تهاونا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحدود، وحاشاه ، وهو القائل فى حادثة المخزومية التى سرقت وشفع لها أسامة : « والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ! » وإنما ذلك رجل قد تاب قبل أن يعلم به أحد ، أو يقدر عليه أحد ، ومن تاب تاب الله عليه « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

ولقد كان رسول الله صلى عليه وسلم رفيقا بأهله ، سهلا فى معاشرتهم : روى أنه كان يُسرب إلى عائشة بعض بنات الأنصار يلعبن معها . ومر يوما جماعة من أهل الحبشة يلعبون ، فقال : ياعائشة تعالى فانظرى ! فقامت فوضعت لحييها على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلت تنظر إليهم فى سرور واهتمام ، ثم قال لها : أما شبعت ؟ أما شبعت ؟ وهى تقول له : لا ، انتظر.. انتظر ! . .

ومن آثار صفائه النفسى ووفائه صلى الله عليه وسلم ، فهو لا يعرف الغدر ولا النكث ولا التنكر مع الزمان ، لأنه لا يتقلب مع المنفعة ، ولا تبطره النعمة :

كان بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عهد ، فأرسلوا إليه رجلا منهم يفاوضه فى أمر من الأمور ، وهو أبو رافع ، فلما رآه وحدثه أخذته عظمته وراعه حديثه ، وألقى الله فى قلبه الميل إلى الإسلام ، وحينئذ نسى الرجل أنه سفير لقومه ، وأنه جاء للمفاوضة عنهم ، فتوجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال له فى لهجة ضارعة : يا رسول الله ! لا أحب أن أرجع إليهم فأبقنى عندك ! فماذا فعل الرسول ؟ هل نسى عهده الذى بينه وبين المشركين ؟ كلا . ولكنه قال : لا . لا . إنى لا أخيس بالعهد ولا أحبس البُرُد ، ولكن ارجع إليهم فإن كان فى نفسك الذى فى نفسك الآن فارجع إلينا . قال أبو رافع : فذهبت ثم أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأسلمت .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا صدوقا لم يُعرف عنه أنه كذب مرة واحدة فى حياته لا قبل مبعثه ولا بعد مبعثه ، ولذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ويرضون حكمه ، وينزلون على قضائه .

إن الكذب علامة من علامات النفاق ، والنفاق لا يكون من أخلاق العظماء ، ولا يخالط نفوس الأباة الشرفاء، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إنى مسلم : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتمن خان » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن يشدد على أمته ويسأل الله دائما التخفيف عنهم ، وكان يوصى أصحابه بألا يكثروا من سؤاله لئلا يشددوا على أنفسهم ، ويقول « أعظم الناس جرما من سأل عن شىء لم يكن حراما فحرم على الناس» ويقول «دعونى ما تركتكم . إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يقصد إلى تعذيب نفسه وحرمانها من طيبات الحياة كما يفعل المتشددون الذين يتكلفون الزهد والورع قصداً إلى الشهرة بالصلاح ، وإنما كان يأكل الطيب إذا وجده ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويعجبه لحم الذراع ، ويستعذب له الماء .

وكان يأمر بالتبشير ، ويكره التنفير . وقد بعث معاذا وابنه إلى اليمن فقال لهما : « بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا » .

وكان يكره المبالغة فى العبادة بما يشق على النفس ، وقد دخل المسجد مرة فوجد حبلاً ممدوداً بين ساريتين فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا حبل لزينب : تصلى فإذا كسلت أو فترت أمسكت به ! فقال : لا . حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر قعد .

وقال لأحد أصحابه « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إليك دين الله . فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وقد نزه الله رسوله الكريم حتى قبل بعثته عن كل ما كان يأتيه أهل الجاهلية من الباذل والمفاسد ، وفى ذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه : « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به إلا مرتين . كل ذلك يحول الله بينى وبين

ما أريد ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته : قلت ليلة لغلام كان يرعى معي : لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمُر كما يسمر الشباب . فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة فسمعت عزفاً بالدفوف والمزامير فجلستُ أنظر وأسمع ، ولكن النوم غلبني فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهم بعدها بسوء ! » .

لهذه الخلال وأمثالها فطنت خديجة رضي الله عنها ، فلما جاءه الملك لأول مرة بالوحي ، وذهب إلى بيتها يقص عليها ما رأى ، ويذكر لها ما يساوره من خوف على نفسه ، قالت له : « كلا ، والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » عرفت من شريف صفاته ما اتخذته دليلا على نجاحه في مستقبل حياته .

* * *

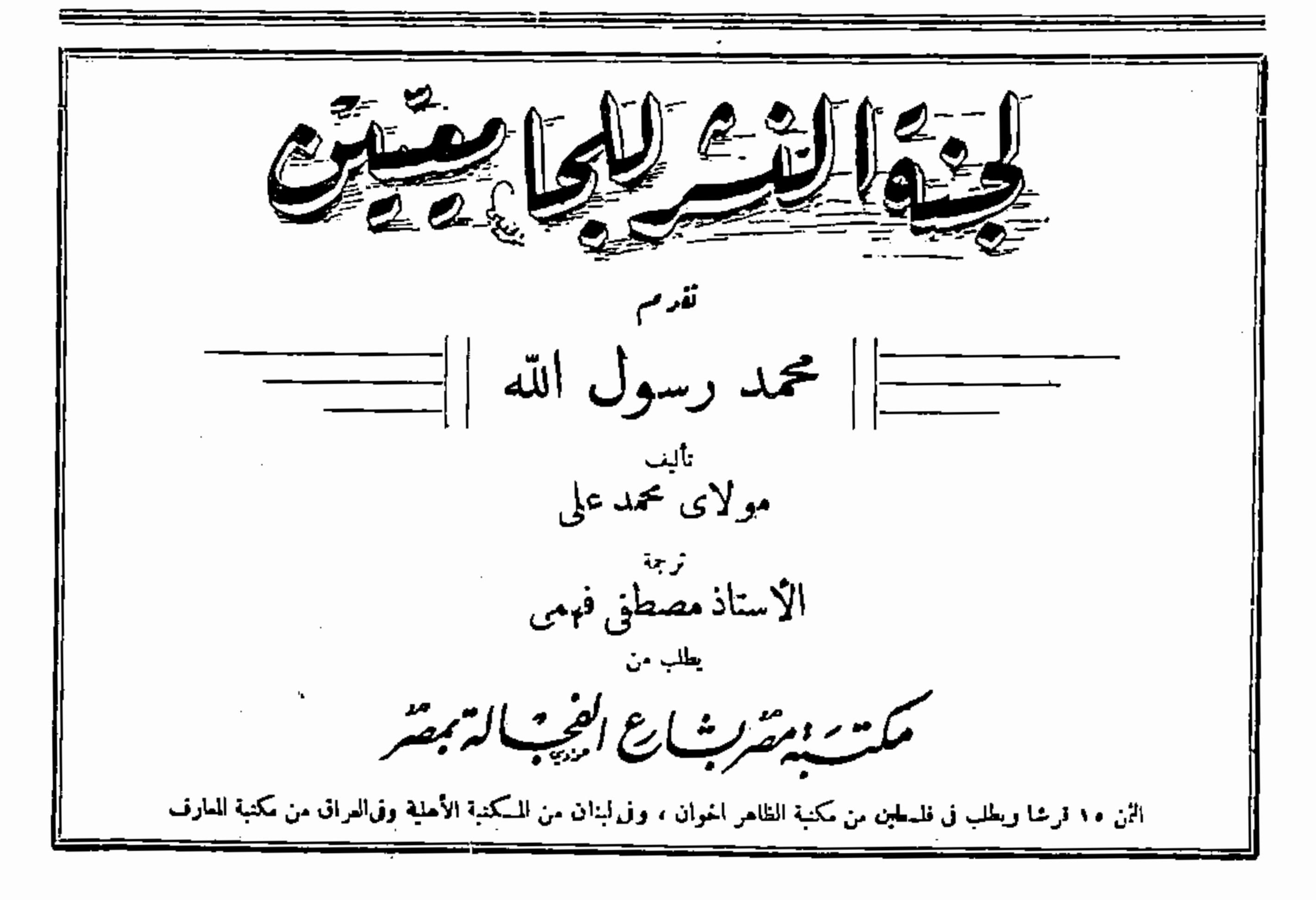
هذه دروس وعبر وآيات بينات تشرق واضحة في سيرة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وتدل على خلاله الكريمة التي وافقت بها طبيعته طبيعة دعوته ، فيها ما يفيد الناس جميعاً على اختلاف مراتبهم ، وفيها ما يفيد العظماء والمصلحين بوجه خاص . إنها تقول بلسان فصيح :

يادعاة الإصلاح : ليس الإصلاح أقوالا تقال ، ولا مذكرات تكتب ، ولا مبادىء ترسم ، لتَخطفَ بها الأبصار ، وتُؤلفَ القلوب ، وتُقضَى على حساب ذلك الْلبانات . إنما الإصلاح أفعال تتحقق بها الأقوال . إنما هو تنفيذ حازم لما رسم من الخطط ووضع من البرامج . إنما هو مُثُل تضرب للناس يبدو فيها الإخلاص لله ، والإيمان بالدعوة ، والغيرة على الفكرة ، والفناء في سبيل المبدأ .

« يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »

أسأل الله أن يعمر قلوبنا بالإخلاص ، وأن يشرح صدورنا للحق ، وأن يفتح لهدى الرسول أبصارنا ، وينير به بصائرنا . إنه على ما يشاء قدير .

محمد محمد المدني



اعترافات مؤمن

للدكتور محمد مندور

لا يستطيع مثلى أن يتنكر لجلال الفكر البشرى، وهو منبع شقائنا وعزائنا على السواء، ولكننى أحسب أن هناك أنواعاً من ذلك الفكر، فالمرء قد يفكر بعقله وقد يفكر بخياله وقد يفكر بقلبه. والتفكير بالعقل هو ما ينفر منه طبعى وذلك لأنه ما لم يحلق الفكر إلى عالم الصور الجليلة بخيال قوى أو يرسب إلى أعماق القلب بحرارة حية لم تهتز له نفس ولا اطمأن إيمان، وإن كنت لسوء الحظ مضطراً كغيرى من البشر أن أكسر فى بعض الأحايين جناح الخيال وأن أطفىء حرارة القلب حين لا يكون بد من أن تتناول الأمور ببرودة العقل اللصيق بالأرض.

منذ أزمة الإيمان التى صادفتنى فى اليفاعة كما أحسبها صادفت غيرى وأنا دائم التفكير فى حقيقة ذلك الإيمان. ولقد مرت بى عقب تلك الأزمة مباشرة أعوام كنت أناقش فيها كل من ألقى عن المشاكل التى يثيرها العقل عن وجود الله وكيف كان ذلك الوجود وعن علاقته بهذا العالم وما فيه من خير وشر. ولا شك أننى كنت أبحث عندئذ على غير وعى منى عن يقين أطمئن اليه، ولكننى أعترف فى بساطة أننى ما قرأت ولا سمعت ما يوجب ذلك اليقين، حتى أصابنى ما يشبه الملل فلم أعد أطيق الحديث فى هذه الأمور، وأصبحت كلما سألنى عنها سائل أو تحدث بها متحدث رميته بالتفاهة وذلك بوعى منى أو غير وعى، ولكنها تفاهة لا يمكن أن أعفيه منها مهما بلغ سؤاله أو حديثه من عمق أو أصالة. ولقد حاولت غير مرة أن أتبين السر فى موقفى هذا فوجدته، أو خيل إلى أنى قد وجدته، فى أمرين: أولهما أن العقل نفسه نشاطه الأكبر موجه إلى تقويض ذاته، فهو لا يزال يبحث عن حدود قدرته ويتناول بالشك ما يصل اليه من آراء ونظريات يعاود فيها البحث فيقوضها حتى أصبح نقده لنفسه خليقاً بأن يهدم ثقتى فيه. وثانيهما أننى كنت أحس دائماً فى غموض أن تطاول العقل إلى ما لا يستطيعه دليل ضعف فيه لا قوة، ولهذا كم كانت فرحتى يوم سمعت عميداً لكلية الطب بباريس يقول: إن من أمارات الضعف العقلى أن نبحث بعقولنا عما لا نستطيع أن ننفذ إليه، والعقل القوى هو الذى يعرف حدود قدرته ». لقد خيل إلىّ عندئذ أن هذه الألفاظ قد أضاءت مظلماً فى نفسى، فرأيت بوضوح ما كنت أحسه غامضاً. ومنذ ذلك الحين آمنت بتفاهة من يناقشنى فى الإيمان بعقله فهذا رجل ضعيف العقل مبدد لنشاطه هدراً

أنا إذن لا أحب الحديث عن الإيمان ولا أومن بالدعوة إليه، ولكننى مع ذلك مؤمن إيماناً راسخاً، وليست لى فى الحياة قوة غير هذا الإيمان، فقد تهب أعاصيرها ومن الممكن أن تتنكر لى يوماً عناصرها ذاتها، ولكن ذلك لا أظنه ينال منى شيئاً، وذلك لا اعتزازاً منى بعروض حياة أو مواهب نفس، ولكن لأنى مؤمن بالله عادل اطمأنت إليه نفسى بحيث لا أذكر أنى قد اتجهت إليه يوماً فلم أجد تأييده، وعند ما أدعوه يسكت فى نفسى طنين الفكر فلا أحس غير الصمت الساكن ولا أفكر حتى فى وسائل القوة التى أبغيها؛ وإنما أساق بعد ذلك فى غير وعى إلى تلك الوسائل كالآلة المسيرة وهى تعرض لخاطرى فى لمحات خاطفة فأسير إليها دون أن أتبين حتى مواقع أقدامى، وإنما أكتفى بما أستشعر من ثقة من أنى ما دمت قد تركت السكون إلى الحركة فإنى فى سواء السبيل. ومهما تكن بعد ذلك من صعوبات، فلا يمكن أن يساورنى شك فى أنها ستذلل ولو فى اللحظة الأخيرة وذلك هو الإيمان الهادى

من أين لى بهذا الإيمان وقد لقيت ضروباً من الناس وقرأت ألواناً من الكتب، ودرست أنواعاً من اللغات والثقافات، بل وخبرت الحياة هزلها وجدها فى كافة الأجواء وتحت مختلف السموات. أستطيع اليوم بعد أن نضجت ملكاتى أن أقول إنى لم يقنعنى أحد به، ولا اكتشفته فى بطون كتب، ولا تلقيته من أفواه بشر،

بل ولا غرسته بمواصلة القيام بشعائره كما تغرس فى النفس مختلف العادات بدوام مزاولتها، وإنما هو إحساس قديم مكنت له فى نفسى حوادث صغيرة كانت بينى وبين أبى

ولا أرى ضيراً من أن أقص طرفاً منها على القراء فتلك تجارب بشرية قد تكون أجدى فى إلقاء بعض الضوء على مشكلة خطيرة هى مشكلة الإيمان من كثير من موسوعات علوم التوحيد والكلام ، ولها على الأقل ميزة الصدق النابض بالحياة ، وهى صادرة عن نفس فيها من القوة ما لا يصرفها عن أن ترد كبار الأمور إلى صغائر الأشياء عند ما تؤمن أن تلك الحوادث الصغيرة هى الأسباب الحقيقية التى تتضاءل إلى جوارها كبرياء العقل ومغالطات الإحساس

عند ما أخذت أدرك علمت أن والدى قد بنى بأحد حقوله « خلوة » لا منفذ لها غير الباب وأنه قد هجر زوجته وأبناءه أربعين يوماً ليقيم فى تلك « الخلوة » يعبد الله فيها آناء الليل وأطراف النهار لا يرى أحداً ولا يراه أحد ، وإنما يحمل له الطعام من خصاص الباب . ولقد أثار هذا الخبر خيالى فكنت ألاحق أبى بالسؤال عنه ولكنه رجل كتوم لسره فلم أحظ منه بجواب غير أن دافعه كان عبادة الله وكفى . ثم علمت أن الشباب كان قد ساقه فى مهاويه فلم يجد عصمة خيراً من معاهدة أحد علماء الدين على التوبة إلى الله . وكان هذا العالم نقشبندى المذهب وكان رجلاً خيراً ، فلم يعد تأثيره على والدى حد توجيهه نحو تجنب الإثم ، وعبادة الله ، والإحسان إلى الناس ، وقراءة كتب الدين . ولكم من مرة حاولت أن أعرف شيئاً عن هذه الطريقة فكان أبى يرفض الإدلاء بشىء ، مكتفياً بأن يخبرني بأن تلك أسرار لا يجوز أن تباح ، ومن غريب الأمر أنى علمت منذ ثلاثة أشهر فقط أن لفظة نقشبند معناها النقش على القلب . واستنتجت من ذلك أن سر هذه العبادة هو أن يستشعر الفرد دائماً أن اسم الله منقوش على قلبه . ولقد لاقيت والدى منذ أيام فأخبرته فرحاً مسروراً أنى قد عرفت معنى اللفظة دون بحث عنه ، ولكن بتوفيق من الله ساقه إلىّ سوقاً . فدهش الرجل وقال : « هو هذا وهو سر العبادة » وإذن فقد خلا أبى لعبادة الله أربعين يوماً، وتحرك خيالى لتلك الخلوة ، ولكننى لم يكشف لى عن سرها ، واقتنعت بأنه لا يجوز لى أن أتطاول إلى معرفة هذا السر ، ولقد آمن أبى سنين طويلة بأنه قد نقش اسم الله على قلبه واتخذ من هذا النقش سبيلاً إلى حده منبهاً وسالباً ، وسمعت بذلك ، ولكنى أيضاً لم أكشف سر هذا الحد ، وآمنت أنه لا يجوز لى أن أتطاول إلى كشفه ، وهكذا تهيأت نفسي إلى الإيمان بالمجهول والاطمئنان إليه والثقة به ، وأكبر ظنى أن الخير ما أراد الله . فلو أن أبى بصرنى بما أردت لخلت نفسى من الأسرار ولأصابها العقم . واتفق أن أبى لم يستطع أن يتم حجه فى بعض المرات إذ أصيب بنقرس شديد فى السويس وأنا عندئذ فى السادسة من عمرى ، وألزمه المرض الفراش عامين كاملين قاسى فيهما من الألم ألواناً حتى لا أزال حتى اليوم كلما ذكرت أنينه اقشعر جلدى. ولست أدرى لأى سبب ارتبط هذا المرض فى نفسى بالإيمان حتى لأحسبه من ما أفاض الله على والدى منه ، ولا زلت منذ ذلك أومن بأنه لا بد أن يبتلى الله المؤمن ليختبر إيمانه وأن المرء لا بد ناج ما سلم الإيمان فى قلبه

وعندما اختارتنى الجامعة لبعثتها حدث حادثان صغيران كان لهما فى نفسى أبلــــغ الأثر : أولهما أننى قبل سفرى رتبت كتبى فى صندوق كبير وبغير وعى منى وضعت « المصحف » على قمة الــكتب ، ورأى والدى ذلك عرضا فسر سروراً لم أقصد إليه ، ولم أرجاه بتوفيق من الله. وحدث إخوتى عما رأى قائلا « إن أخاكم فلان سيكون الله دائما معه وسيوفق فى كل مايعمل » فسألوه « ولم ذلك » فأجاب « لأننى لاحظت أنه وضع كتاب الله فوق كل كتاب » ثم إننى فى يوم السفر فوجئت بهدية من والدى أوصانى أن أحتفظ بها مدة غيبتى وأن أعود بها إليه ، وكانت تلك الهدية عبارة عن منديل للشيخ العالم النقشبندى الذى عاهده والدى على الهدى . ولقد أخذت المنديل واحتفظت به تسعة الأعوام التى مكثتها بأوروبا وعدت وهو لا يزال إلى اليوم بين ملابسى . ولا أستطيع أن أزعم أنى قد علقت به إيماناً خاصا أو قوة معينة بل ولا فكرت فى ذلك ، ولكنه نوع من الاطمئنان السلبي الربح . وقد اختلطت فى نفسى قيمة الهدية بحبى لمهديها وإعانى به ، وكان لهذين الحادثين فضل دائم فى ردى إلى الإيمان كلما تجهمت لى الحياة .

ولقد اتخذ الإيمان فى نفسى وجهة الإحسان إلى الغير، حتى لأحسب أنى عاجز عجزا أصيلا عن بغض أحد، فقد يقسو قلبى وقد يلذع لسانى ، ولكننى ماعدت إلى نفسى إلا أحسست بفيض من التسامح لا أستطيع دفعه . وأكبر ظنى أن هذا الاتجاه كان أيضا لإشباع من والدى ، وليسمح لى القراء أن أقص حادثا عائليا كان له فى هذا الاتجاه أكبر الأثر

من مذكرات عمر بن أبي ربيعة

صديق إبليس

للأستاذ محمود محمد شاكر

« قال عمر بن أبى ربيعة » :

« لم أول أرى كاثم (هى بنت ســـعد المخزومية زوجة عمر) أجزلَ النساء رأياً وأصلبهنَّ مَكسِراً، وأقواهُنَّ على قيرة قلبها سلطاناً ، حتى إذا كان مُنذ أيام رأيتُ امرأة قد استملنَ ضعفها ، وتهتَّك عنها جَلَدُها ، وعادت أنثى العقل يُغويها الذى يغريها .

« وإن أنسَ لا أنسَ يوم احتلتُ عليها حتى دخلت إليها ، وقد تهيأت لى أجملَ هيئة وزينت نفسها ومجلسها ، وجلست من وراء الستر ، فلما سلمتُ وجلستُ ، تركتنى حتى سكنت ، ثم رفعت الستر عن جمال وجه يخطف الأبصار ، ثم رمت فى وجهى تقول : أخبرنى عنك أيها الفاسق ! ألست القائل كذا وكذا ؟ تعنى أبياتاً لى ، فما زلتُ أفتِلُ فى الذِّرْوَة والغارب ، وهى تنِدُّ علىَّ وأنا مقيم عندها شهراً لا يدرى أهلى أين أنا ، ولا أدرى ما فعل الله بهم . ولا والله ما مرَّ علىَّ يوم إلا حسبتها امرأة قد خلقتْ بغير قلب ، لما ألقاه من عنادها وامتناعها ، وإنى لآتيها بالسحْر بعد السحر من حديث تحنُّ عليه العوانس المتصباتُ فى مَرَابىء الزمن ، وأنا يومئذ شاب تتفجرُ الصَّبْوة من لسانى ، ويتلألأ الغزلُ فى عينىَّ ، وهى يومئذ غادة غريرة لو نازعها النسيم ، فيما أرى ، لاستقادتْ له من دَلِّهَا ولينها وغضاوة العيش . ولبثت شهراً أقول وأحتال وأستنزلُ عُصْمها برُقى السحر ، حتى إذا قلت قد دانتْ ، انفلتت مصمِّمَة قد تركتنى شاخصاً أنظر إلى صيد قد طار ، ثم أطرق ناظراً إلى سحر قد بطل . فلما اشتد ذلك علىَّ استأذنتها فى الخروج إلى أهلى ، وقد يئست منها ومن هواها ، فما سمعت حتى قالت : « عينَ الله أيها الفاسق ! بعد أن فضحتنى ؟ لا والله لا تخرج أبداً حتى تتزوجنى ! » فتزوجتها وهى أحبُّ النساء إلى أن أتزوَّج ، وما زلتُ معها وأنا لا أنكرُ منها شيئاً ، وأقول الشعر تأخذه الألسن لتشيعه

كان لوالدى تسعة إخوة وكان يحبهم جميعا حبا قلبيا صادقا حتى لقد كان يذهلنى عندما يموت أحدهم أن أراه وهو الشيخ الكتوم لسره يبكى بدمع حار ، وكان أصغر إخوته رجلا كريما متلافا ، وكان والدى يهتز فى دخيلة نفسه لكرمه وإن أحزنه إتلافه لماله ، ولقد هدد هذا الإتلاف ثروته حتى أوشكت أن تضيع ، وكان والدى يحرص على أن يستنقذ من تلك الثروة مايستطيع ؛ وحدث ذات يوم أن ألح الدائنون بالمطالبة وكان الوالد يستطيع عند ئذ أن يمكنهم ببعض ماله الخاص ولقد فعل ، وكنت عند ئذ فى السابعة عشرة من عمرى وكانت والدتى ككافة الأمهات تحرص على أن يستبقى الوالد أمواله لأبنائه ، وكان أخى الأكبر يناصرها فى الرأى فانتحى بى والدى فى الليل ناحية وأسر لى بنيته طالبا إلى أن أخفى الأمر عن والدتى وأخى . ولقد رأيت فى هذه الحركة ثقة بى برغم حداثة سنى أثرت فى نفسى أبلغ الأثر ، فتحمست منذ ذلك اليوم لعمل الخير وآمنت أنه جزء من الإيمان حتى استقر بى الرأى إلى أن عون الملهوف وإسداء المعروف إلى الناس لا بد أن يخلفه الله بالخير على صاحبه ، ولا زلت حتى اليوم أعتقد أن بركة الله قد حلت بمال والدى منذ ذلك الحين . وذلك لأنه مال لم يطهره بالزكاة فحسب ، بل زكاه بالإحسان .

هذه هى عناصر الإيمان فى نفسى ، الطمئنان إلى المجهول ، وعدم تطاول بالعقل إلا مالا يستطيعه ، وربط للأخلاق بالإيمان ، وتسامح مع الناس ، وعمل للمعروف حيث نستطيعه . وأما منابع ذلك الإيمان فهى كما ترى لم تكن محاجة عقلية ولا إثارة عاطفية ، ولكنها حوادث صغيرة كانت أبلغ فى تمرسه بالنفس من كبار الموسوعات وطوال الخطب

محمد مندور
المحامى

إلى الآذان ، وأدخل بيتى فألقاها فلا أسمعُ منها قلتَ وقلتَ ! فيكرُبنى إغفالُها لـما يبلغها من الشعر ، فألحُّ على النسيب ، وأذهب كل مذهب فى التشبيب ، وأتبعُ النساء بعينىّ وقلبى ، وأقولُ ، فلا والله ما نبَض لها قلب ولا تحركت لها جارحة ، ولقد أدخل عليها فإذا هى تلقانى ضاحكة لاهية ، حتى أقول : لعلها لم تسمعْ ! فأنادى مولاى وأملى عليه ، وهى بحيث تسمعُ ما أملى ، وأتخلل الإملاء بالشكوى والحنين وأرفع بهما صوتى ، ثم أنهض ألقاها فما أرى وجهها ربَدَ أو يتمعّر ، فكان ذلك غيظى وشقوتى ، لا تزيدها الأيام إلا اتقاداً . ويلُمّه كيلاً بغير ثمن ! كم ذا أُغيرُها فلا تغارُ !

وأقبلتُ ذلك اليوم ، بعد مرجعى من الكوفة بشهر أو أكثر ، فاستقبلنى جُوان (هو ولد عمر من كلثم) فقال : « يا أَبَهْ . أمى ، ما فعلت بها ؟ » . قلت : « أمك ! بخير يا بنىّ وعداها السوء » . قال : « كلاّ يا أَبَهْ ، وما أدرى ما بها ، غير أنى ظللتُ أياماً أستخبرها ، وهى خالية ، عما يريبها أو يؤذيها ، فلا أسمعُ منها إلا ما تنشده من شعرك

كُنّا كمِثل الخمْرِ كان مِزَاجَها
بالمــاء ، لا رَنَقٌ ولا تكديرُ
فإذا وذلك كان ظِلَّ سَحابة
نَفَحتْ به فى المُعصرات دَبورُ

« ثم تنظر إلىّ وتقول : يا جُوان ، امضِ لشأنك ، ولا تنسنى فى صلاتك ، فورب هذه البنيّة لقد حملتُك ووضعتُك وأنا أدعو الله أن يجتبنى الشيطانَ ، وأن يجنّبَ الشيطانَ ما رزقنى ، فكنتَ أنتَ يا بنىّ دعوتى ، فادعُ ربّك يا جُوان لأمك التى حملتك وهناً على وهن .

فإنْك ماشئتَ على ما انقضى كل وَصْلٍ مُنقَضٍ ذاهبُ
لو يردُّ الدمعُ شيئاً ، لقد ردَّ شيئاً دمعُك الساكبُ

فأقول : « يا أماه لقد أفزعتنى ! » فتقول : « اذهبْ يا بنىّ « لو تُرِكَ القَطا ليلاً لنامْ » . ثم تشيحُ وتنصرفُ ، ولا والله ما قدرتُ منها على أكثر من أن أسألها فتجيبنى بمثل ما أخبرتُك . فبالله ، يا أَبَهْ ، لا تدع أمى تموتُ بحسرة تتساقط عليها نفْسُها ! ارحمها يرحمك الله .

ويذهبُ جُوان ويدَعنى لما بى ، ويأخذنى ما حدُث وما تقدّم ، وكيف ولم أنكرْ منك يا كلثم شيئاً منذ رجعت من غيبتى بالكوفة ؟ وإنى لأدخُلُ عليها فتداعبنى وتضحكُ لى وتذهبُ بى فى لهوها مذاهبَ ، ولا والله إنْ وقعتُ منها على مساءة تضمرها أوهمّ تكتمه ، وكأن الحياة قد منعتْ دونها غِيَرَ النفس فهى لا تتغير . وهذا جُوان يقول ، فلئن صدَق لقد كذبتنى عيناى وكذبَ علىّ قلبى ، وإن كلثم لتلهو بى وتتلعّبُ وأنا فى فى غفلة من كِبرْ شأنها وأساها ! وأذهب من ساعتى أدورُ فى الدار أنظر ، فإذا كلّ شىء أراه قد لبس من همّ نفسى غلالة سوداء نشأت بينى وبينه ، وإذا أيامنا الوافى قد بُعثتْ فى أسمال هلاهيل تطوف متضائلة فى جنباتِ البيت وهى تنظرُ إلىّ نظرة الذليل المطرَّد المنبوذ ، وإذا كلثم قد خرجت إلىّ كاللبؤة الْجَرِبة ربيتْ أشبالُها ، وإذا أنا أسمعُ همهمة كأنين الجريح تنفذ فى أذنىْ من حيثما أصغيتُ ، وما هو إلا أن أرانى فى فراشى قد توكأتُ على مرفقى ، والنشيةُ التى أخذتنى تتقشعُ عنى شيئا بعد شىء . وبعد لأى ما ذكرت ما كان من حديث جُوان كما كان ، فنهضت من مكانى أطلب كلثم فى غرَّتها حيث هى من البيت .

وقصدت مقصورتها فإذا هى قد أجافت الباب ، فذهبتُ أفتحه وإنْ بدى لتأبى علىّ أن تعد خشية أن أطلع منها على ما يسوءنى ، وهى أحبُّ إلىّ من أن أراها مغمومة أو مكروبة ، على غير ما عودتنى وعودتها . فاستأذنها من ورائه فقالت : « مهلاً يا أبا الخطاب ، وبخير ما جئت » . فقلت لنفسى : « كذب والله جُوان وما كان كاذباً » . فلما فتحتْ لى الباب رأيتُ سُنة وجه كالسيف الصقيل يبرق شباباً ورضى ، وقالت : « مرحباً بك يا عمر ، لو رأيت الساعة جاريتى وهى تدخلُ علىّ ساعية تجرى تقول : سيدتى أدركى مولاى فقد سمعت الناس يتناشدون من شعر قاله اليوم ، وإذا فيه

ليس حُبٌّ فوق ما أحببْتُها غير أن أقتل نفسى أو أُجَنْ

فاحفظيه يا سيدتى من روعة المصيبتين . فقلت لها : لقد وقى مولاك السوء أن ليس بينه وبين الناس إلا لسانه ! ولا يقتل مولاك نفسه أو يجنّ حتى يقتل الحمام نفسه على هديله أو يجنّ . »

لم أدرِ ما أقول ، فقد كانت كلمات جوان قد تشبَّحت لعينيّ ودوّت في أذني ، فما أطقت صبراً أن أسألها : « ما يقول جوان؟ زعم أنك لا تزالين مهمومة لأمر يستخبرك عنه فلا تخبرينه ، ولقد مضت السنون بيني وبينك ، ولا والله ما علمتُ إلا خيراً ولا رأيت إلا خيراً ، وما قال إلا ما يحملني آسَى على ما كان مني إليك مما ساءك أو رابك » . وما كدت أتمُّ حتى رأيتها تنتفض كالرشأ المذعور أفزعته النبأة ، وبَرَقت فتخاذلت وغرق صوتها فما تنطق ، فخاصرتها ومشيت بها إلى مجلس في البيت وجلست أترفّق بها حتى تهدأ . وبعد قليل ما قالت : « أما إذا كان هذا يا أبا الخطاب فوالله إنْ كتمتُك شيئاً » .

ثم أطرقت ساعة ، وأنا أنفذُها ببصري أطلب غيب ضميرها ، ثم رفعت إليّ بصرها ونظرت نظرة المرتاب ثم قالت « إني محدّثتك يا أبا الخطاب عما كان كيف كان . هذه جاريتي ظمياء تدخل عليّ كالمجنونة منذ أيام تقول : « سيدتي ، عين الله أن تكتمي عليّ ما أقول» فأقول : «أمنت يا ظمياء! ما روعك؟» فتقول : « لا والله ما روعني إلا أن أدع مولاتي توصم بين نساء قريش وبني مخزوم ، ويتحدث أهل مكة أن أم جوان قد لقيت من البلاء كذا وكذا » . فأقول : « ويحك يا ظمياء ! انظري ماتقولين ! » . فتقول : « لا والله إنْ هو إلا الحقّ ، أرأيت إلى تلك البيضاء الصهباء ذات العينين التي ما زالت تجيئني منذ أيام ، لقد قالت لي في عُرض حديثها : يا ظمياء لقد جئت مكة من بلادٍ بعيدة ، وإني لأسمع الناس على الطريق يذكرونها ويذكرون بيت الله الحرام ، فما ازددت إلا شوقاً أن أرى بيت الله الحرام ، وأن أرى الناس يجاورون هذا البيت العتيق ، وما وقع في قلبي إلا أن أرى دنيا لم أرها ، وقوماً كتب الله لهم أن يكونوا أطهر وأتقى الناس لله . ولقد خرجتُ من بلادي وهي أبغض إليّ لما أرى من فجور أهلها وانغماسهم في كل إثم وباطل ، وكنت أرى أشد أهلنا فجوراً ولجاجاً أولئك الشعراء . ثم دخلت بلادكم وطوّفت فيها ما طوّفت حتى إذا انتهيت إلى أرضكم هذه ، لم أزل أعرف الشعراء فيكم أفجَرَ وأفسق وأضلّ » .

« فما أطقت أن أصبر يا مولاتي حتى قلت : « مَهْ يا صهباء ، وكذبتِ . وأين بنو الأصفر من بني يعرب ؟ فإن شاعر العرب ليقول ، وإن قلبه لأطهر من أن يدنسه ما يدنس به شعراؤكم أنفسهم يا بني الأصفر . وهذا مولاي وهو أغزل العرب لساناً ، وما علم أحد عليه سوءاً . قالت صهباء : ما أحسن ما رباك أهلك يا ظمياء ! وأحسني ما شئت ظنك في مولاك قلت : تبًّا لك . وإنك لتر يغين إلى مولاي منذ اليوم ، فلا والله لقد كذبتِ وخسئت أيتها الصهباء الطارئة التي لا مولى لها . فقالت صهباء : كذبتُ وخسئتُ ! ما أصدق ما قال مواليك « من دَخل ظَفار حَمَّرَ » ! وإنك لغريرة ياظمياء ، وأنا الصهباء الطارئة من بنات الأصفر لأخبر منك بغيب مولاك عمر . قلتُ : كيف قلتِ ؟ قالت : إنه الحق ، وإن لمولاك غيباً عميت عنه عينـــاك وعين مولاتك ، وهو أحرص عليه من أن يطلع على خَبْئه أحد قلت وأنَّى لك أيتها الغريبة ؟ قالت : دعي عنك ، فهو الذي أحدثك .

« ثم دنتْ منّي كأني تسرُّ إليّ وقالت : ما كذبتُك أيتها الحُلْوَة الغريرة ، فهذا مولاكِ قد ذهب إلى الكوفة منذ زمن ، ألم يكن ذلك ؟ وهذا مولاكِ قد نزل بأفسق خلق الله وأخبثهم عبد الله بن هلال الحيريّ الذي يَزْعُم أنه صديق إبليس وخَتَنُه وصاحب سرّه ، وإذا هذا الفاجر يخرجُ إليه قينتين من أجمل خلق الله وأحسنه يغنيانه بشعره حتى ذهب عقلُه ، وإذا هو يدير مولاك يوما بعد يوم على أن يُفتَتَن بهما ، حتى إذا بلغ منه ماأراد ضمن له أن تكونا بالطائف بحيث لا تراهما عينُ بشر . لاتنظري إلي كالمرتابة ، فهذا الخبيث ابن هلالٍ قد ألقى الطاعة إلى إبليس حتى عظُم أمره عنده فهو يُخْدِمُه ويُناطقه ، وحتى لقد ترك له صلاة العصر تقربا إليه ، وحتى أباحه إبليس أن يأمر الشياطين تتلعّب ببني آدم ، ومن شرطه عليه أن لايزال أبداً يجمَعُ بين الرجال والنساء في الحرام . وهو رجل كما يقول مولاي ...» قالت ظمياء : وإن لك لمولى ياصهباء ؟ قالت صهباء : دَعيـــني حتى أتمّ يا ظمياء .. هو رُجل قد أوتي من القُوَّةِ على السِّحرْ والقدرةِ على تلبيس أنظار الناس ما لم يجتمع لأحد من شياطين السَّحرة قبله ، فلو هوسّ وجْه امرئ بمنديله الأزرق ذي الوشي لم تأخُذْه عينُ بشر . وهكذا هو يفعل بمولاك وصاحبتيه حتى لايراهم الناس . قالت ظمياء : وإنّ هذا يكونُ ؟ ! قالت صهباء : نعم ! وليس في الأرضِ أحدٌ يطيق أن يَدْرأ شرّ هذا الشيطان الخبيث إلا مولاي . فقالت لها ظمياء : ولكن أنى لمولاك يا صهباء أن يكونَ عَرَف الذي خبرتني به إن كان ما تقولين من

نظام الشورى في الإسلام

بين الكثرة والقلة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي



كم فى السيرة النبوية من أسرار تشريعية لو رجعنا إليها لأغنتنا عن الاستعانة بغيرها من التشريعات المنحرفة ، فى عصر ضلت فيه السياسة ضلالا بعيـــداً ، وطغت فيـــه التعصبات الحزبية حتى أعمت الأمم عن النظر فى مصالحها العامة ، وآثرت عليه النظر فى مصالحها الحزبية ، وحتى ثارت فى كل أمة خصومات وخلافات خطيرة تفرق كلمتها ، وتقضى على الأخضر واليابس فيها ، لأن الحكومة تقوم فيها على أساس الحزبية ، فكل حزب يعمل كل ما يوصله إلى الحكم ، ويرى مصلحته فى هذا فوق غيرها من المصالح

وقد أخذنا نظمنا الحديثة فى الشورى عن تلك الأمم ، وقلدناها فى تلك السياسة الحزبية العمياء ، فضللنا وجه الصواب كما ضلت ، وأخذنا نتخبط فى حكمنا مثلها تخبطا معيبا ، حتى اضطربت أمور الحكم فينا ، وحرمنا من الاستقرار الذى نتفرغ فيه لمصالحنا

ولو رجعنا إلى السيرة النبوية لوجدناها قد سنت نظام الشورى على وجه يسود فيه التسامح ، ولا يغلو فيه التعصب للرأى إلى ذلك الحد المعيب ، فسارت سياسة الحكم فى هدوء ، واستقر الأمر استقراراً ظهر فيه الحق بوضوح ، فلم يعمه عن أعين الناس تعصب للرأى ، ولم يصرف الأمة عن مصلحتها العامة مثل ذلك التغالى فى الخلاف

مولاى مما سمعته منه ! قالت ظمياء : فدنت منّى ونظرتْ فى عينىّ بعينين مذعورتين يخفِقُ فيهما مثل شقائق البرق ، ثم قالت : ما من شىء يفْعَله هذا الخبيث ابن هلالٍ حيث كان إلاّ كانَ عند سيّدى خبرُه . فقالت لها ظمياء : وَيْبى ! أحقًّا قلت ياصهباء ؟ قالت : وَىْ ، أو كنتُ كاذبةً عليك وما أنا وأنت إلاّ من هذه الجوارى الغريبات المستضعفات ؟ ومالك تكذّبينى وإنْ عندى من برهانٍ ذلك مالا قِبلَ لك بردّه . قالت ظمياء : بالله ! قالت : بالله ، فاذهبى إلى صِوَان سيّدك فى هذه الغرفة التى إلى جوارنا ، وأخرجى من بين المِطْرف السابع والثامن من ثياب مولاكِ ماتجدين !

[قالت كلثم امرأة ابن أبى ربيعة] :

« فهبّت ظمياء فدخلت إلى صِوَانك (تعنى عمر) فأخرجت شيئاً رجعتْ به إلى صهباء . ثم إذا هى تدخلُ علىّ وتقصّ قِصّة ما كان ، فأمرتها أن تأتينى بصهباء لأسمع ماتقول ، فروت لى كل ما حدثتك به يا أبا الخطّاب .

(قال عمر بن أبى ربيعة) :

« فما تمالكت أن قلت لكلثم : ماتقولين ؟ وأى شىء هذا الذى كان بين مطرف السابع والثامن ؟ فقالت كلثم : رُويدَك ياعمر ، إما أن تدعنى أُتمّ وإلاَّ والله لاسمعتَ منى شيئاً حتى يقطَع الموت بينى وبينك . قلت : ويحك ، فأتمى :

قالت كلثم . « ثم إنى سألت صهباء عن سيدها ومولاها ، فقالت إنه رجل صالح يسيح فى الأرض ، وإنه قد جاء لحج حِجّتَه وهو على سَفَرِه بعد قليل يضرب فى البادية حيث يشاء الله . قلت لها : أو يعلم مولاك من أمر ماتحدثينى عنه أكثر مما قلتِ ؟ قالت : لاأدرى يامولاتى ، فإنه ربما دعانى ويجمل يحدثنى ويحدثنى حتى أقول لن يَسْكُتَ ، وما هو إلا كخاطفة البرق حتى يقطع فلا يتكلم . فربما عدت فسألته فلا والله ما يزيد على أن ينظر إلى ويبتسم . قلتُ لها . أو تستطيعين ياصهباء أن تأتينى بمولاك ، ولك عندى مائة دينار ؟ كلا لا نلت من مال مولاتى شيئاً ، ولكنى سأدبره حتى يأتيك لما أرى فى وَجْهك من الخير والسَّعْد

(البقية فى العدد القادم)

محمود محمد شاكر

وقد تم ذلك فى غزوة أحد من غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت فى السنة الثالثة من الهجرة ، فقد وقع فيها خلاف بين المسلمين انقسموا فيه إلى فريقين : أحدهما يمثل الكثرة ، وثانيهما يمثل القلة ، خُفِّلَ الخلاف بينهما على وجه لا أثر فيه للتعصب ، ولا يمكن أن يكون هناك أتم منه فى وجوه الشورى

وكان ذلك الخلاف أن رجالا من المسلمين أسفوا على مافاتهم من مشهد بدر ، لما كانوا يسمعونه من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بفضل من شهدها ، وعظيم ثوابه ، فكانوا يودون غزوة ينالون فيها مثل مانااله أهل بدر وإن استشهدوا ، فلما سار المشركون فى غزوة أحد إلى المدينة رأوا أن يخرجوا منها لقتالهم ، وعرضوا رأيهم هذا على النبى صلى الله عليه وسلم

فنام صلى الله عليه وسلم ليلته فرأى رؤيا ، فلما أصبح قال : والله إنى قد رأيت خيرا : رأيت بقرا تذبح ، ورأيت فى ذباب سيفى ثَلْمًا ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة . فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل ، وإنى رأيت أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم ينزلون حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم ورُمُوا من فوق البيوت

وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، وجعلوا فيها الآطام والحصون ، فكانت حصنا قويا لأهلها ، وكان الرأى أن يقيموا فيها ، كما فعلوا بعد ذلك فى غزوة الأحزاب ، فلم يقو المشركون على اقتحامها على المسلمين ، وكانت جموعهم فيها أكثر من جموعهم فى غزوة أحد

فقال أولئك القوم الذين أسفوا على مافاتهم من مشهد بدر ، وغالهم أحداث لم يمكنهم أن يشهد تلك الغزوة الكبرى ، فأحبوا لقاء العدو وطلبوا الشهادة فأكرمهم الله تعالى بها : يارسول الله ، إنا كنا نتمنى هذا اليوم ، أخرج بنا إلى أعدائنا لايرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا

وقد رأى عبد الله بن أُبَيّ رئيس المنافقين تلك الرغبة الصادقة فى القتال من أولئك الشبان ، فساءه ذلك منهم ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : أقم بالمدينة لاتخرج اليهم ، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا

ومثل هذا لايحمد من عبد الله بن أبى وإن وافق فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الحق ليس فى كلمة تقال ، ولا فى فعل يظهر بين الناس ، بل لابد مع هذا من صدق النية ، وحسن المقصد ، وقد عول الإسلام على النية فى الأقوال والأفعال أكثر من التعويل على الأقوال والأفعال فى ذاتها ، حتى أثر فيه ذلك القول المشهور : نية المرء خير من عمله

فلما سمع أولئك الشبان ذلك القول من عبد الله بن أبى لم يأبهوا له ، واجتهدوا فى حمل النبى صلى الله عليه وسلم على رأيهم ، وقال حمزة وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك وطائفة من الأنصار : إنا نخشى يارسول الله أن يظن أعداؤنا أنا كرهنا الخروج جبنا عن لقائهم ، فيكون هذا جراءة منهم علينا . وزاد حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب ، لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة . وقال النعمان : يارسول الله ، لاتحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لِمَهْ . فقال : لأنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : صدقت . وقد استشهد رضى الله عنه فى هذه الموقعة

وقد نظر النبى صلى الله عليه وسلم فوجد أن الذين يرون من أصحابه رأى أولئك الشبان أكثر من الذين يرون رأيه ، فنزل طائعا على رأى ذلك الفريق الذى كان أكثر عدداً ، وترك رأيه إلى رأيهم ، وهو الرئيس الأعلى ، والرسول المبعوث إلى الناس كافة ، لأنه رأى أن من يوافقه فى الرأى أقل عددا من الفريق الأول ، فلم ينظر إلى شخصه فى ذلك الخلاف ، وإنما نظر إلى التشريع الذى يجب أن يُسَنّ فى تلك الحادثة من الشورى التى شرعها فى الإسلام ، ليستقيم المسلمين أمرهم فيها ، ولايقعوا فى ذلك التعصب الأعمى للرأى ، فتنقلب نعمة الشورى نقمة ، ويضل الناس بها سبيل الحكم الصالح ، وبهذا علم المسلمون أنه يجب عند اختلاف الرأى فى الشورى أن ينزل الفريق الأقل عددا على رأى الفريق الأكثر عددا ، وإن كان يرى أن رأيه هو الأرجح ، لأن مخالفة الكثرة أشد ضررا ، وكما يجب تقديم النافع على الضار ، يجب تقديم الأخف ضررا على الأشد ضررا

ولما نزل النبي صلى الله على رأى تلك الكثرة صلى بالناس الجمعة ، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد في التأهب للقتال ، وأخبرهم بأن لهم النصر ماصبروا ، ففرح الناس لذلك فرحا شديدا ، ثم صلى بهم العصر وقد حشدوا ، وحضر أهل العوالي وهي القرى التي حول المدينة من جهة نجد ، فدخل حجرته ولبس عُدَّته ، وتقلد السيف ، وألقى الترس وراء ظهره

وقد اصطف الناس مابين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه ، فقال لهم سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج ، وقلتم له ماقلتم والوحي ينزل عليه من السماء ، فردوا اليه الأمر

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد لبس لأمته ، وتقلد سيفه ، فندموا جميعا على ماصنعوا ، وقالوا : ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ماشئت ، وفي رواية — مابدا لك — وفي أخرى — فإن شئت فاقعد

وإنه لإيثار جميل من تلك الكثرة ، ولم يحملهم عليه إلا بدء النبي صلى الله عليه وسلم قبلهم بإيثار رأيهم على رأيه ، حفظا للوحدة ، وحذرا من الفرقة ، وإذا كانت فضيلة الإيثار جميلة فيما يملك الإنسان من مال ، فكم يكون جمالها فيما يمتز به من رأى ، والرأى عند الإنسان أشرف من المال ، وكم ضحي بالمال في سبيل الرأى ، ولكن فضيلة الإيثار كانت ظاهرة ذلك العهد النبيل ، فلا غرو أن تبادل تلك الكثرة النبي صلى الله عليه وسلم إيثارا بإيثار ، وأن تترك رأيها إلى رأيه طائعة مختارة ، بعد أن جاهدت في تأييده ماجاهدت ، وناضلت في الدفاع عنه ماناضلت

ولكن النبي صلى عليه وسلم رأى أن رأيه كان هو الارجح قبل أن يؤثر رأيهم على رأيه ، وقبل أن يلبس لأمته ويتقلد سيفه ، فأما بعد ذلك فقد اتفق رأيهم جميعا على الخروج ، فإذا رجعوا عنه لم ير الأعداء إلا أنهم جبنوا عن قتالهم ، فيحملهم ذلك على الطمع فيهم ، ويعطيهم قوة معنوية يكون لها أثرها في قتالهم

فقال لأولئك الذين تركوا رأيهم إلى رأيه في القعود بالمدينة : ماينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . وفي رواية — لا ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب، وأذَّنَ في الناس بالخروج إلى العدو ، أن يرجع حتى يقاتل . فياله من عهد كريم بلغ فيه حكم الشورى غاية الكمال ، ولم تتفرق فيه الأمة إلى أحزاب متخاصمة على الحكم ، بل ظهرت فيه كتلة واحدة ، إذا اتفق أفرادها فرائدهم المصلحة العامة ، لامصلحة حزب من الاحزاب ، وإذا اختلف أفرادها فرائدهم تلك المصلحة أيضا ، لأنهم لا ينقسمون إلى أحزاب ينافس بعضها بعضا ، ويحملهم التعصب لها على نسيان مصلحة الأمة في نبذ التفرق ، وإيثار الوفاق على الخلاف

وإذا فخر في عصرنا قوم بنظام الشورى عندهم ، فهذا نظام الشورى عندنا قد بلغ غاية الكمال ، وخلا من العيوب التي يرى بها حكم الشورى في عصرنا ، ويجعل بعض الناس يفضل عليه الحكم الاستبدادى ، وأين تشريع البشر من تشريع الله تعالى ؟ فلا تشريع أكمل من تشريعه ، ولا حكم أعدل من حكمه ، فتبارك الله أعدل الحاكمين ، وأحسن الخالقين

عبد المتعال الصعيدي

التصوير الفني في القرآن

للأستاذ سيد قطب

التصوير هو الطريقة المفضلة في تعبير القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية ، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية ، وعن الحادث والمشهد المنظور ، كلها سواء في طريقة التعبير المحسوس . وإنه ليرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد والقصص ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات ؛ وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع ، وأمر يكون :

فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة . . .

إنها الحياةُ هنا . وليست حكايةَ الحياة

فإذا ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية، وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروي ؛ إنما هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر . . . أدركنا سر الإعجاز في تعبير القرآن .

والأمثلة على هذا الذي نقول هو القرآن كله ، حيثما تعرض لغرض من الأغراض التي ذكرناها : حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد أو حالة نفسية أو صفة معنوية أو نموذج إنساني ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة ، أو حالة من حالات النعيم والعذاب ؛ أو حيثما أراد أن يضرب مثلاً في جدل ، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقا ، واعتمد فيه على الواقع المحسوس ، أو التخييل المنظور .

وهذا هو الذي عنيناه حينما قلنا : « إن التصوير هو الطريقة المفضلة في تعبير القرآن » . فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة تقع حيثما اتفق . إنما هو مذهب مقرر ، وخطة موحدة ، وخاصية شاملة . يتفنَّن في استخدامها على طرائق شتى ، وفي أوضاع مختلفة . ولكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة . قاعدة التصوير .

ويجب أن نتوسع في معنى التصوير حتى ندرك آفاق التصوير في القرآن . فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة — عن طريق التخييل — كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل . وكثيراً ما يشترك الوصف ، والحوار ، وجرس الكلمات ، وإيقاع الجمل ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان . وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات . فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو في مشاهد طبيعية تخلع عليها الحياة . . . والآن نأخذ في ضرب الأمثال

١ — يريد أن يعبر عن معنى : إن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ولن يدخلوا الجنة إطلاقا » ، وأن دخولهم فيها مستحيل . وهذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة ؛ ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية :

« إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، لا تُفتَّح لهم أبوابُ السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلجَ الجملُ في سَمِّ الخياط »

وبدعك ترسم بخيالك مشهداً لتفتّح أبواب السماء، ومشهداً آخر لولوج الحبل الغليظ فى ثقب الإبرة الصغير. « ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم «الجمل» خاصة فى هذا المقام! » . ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالمشهدين ما شاء له التأثر، ليستقر معنى «القبول» ومعنى « الاستحالة » فى أعماق النفس، وقد وردا إليها من طريق العين والحس — تخييلا — وعبرا إليها من منافذ شتى، لا من منفذ الذهن وحده، فى سرعة الذهن التجريدية.

٢ — ويريد أن يوضح حالة نفسية لتزعزع العقيدة، حيث لا يستقر الإنسان على يقين، ولا يحتمل كل ما يصادفه من الشدائد فى سبيل عقيدته القوية، مبتعداً بها عن ملابسات الحياة اليومية، مرتفعاً بها عن مقاييس الربح والخسارة. فإذا هو يرسم لها هذه الصورة المحسوسة.

« ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه. خسر الدنيا والآخرة. ذلك هو الخسران المبين »

إن الخيال ليكاد يجسم هذا « الحرف » الذى يعبد الله عليه هذا « النموذج » من الناس. إنه يتخيل الاضطراب المادى لهم وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع النفسى، بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع لأنها تنطبع فى الحس، وتتصل منه بالنفس

وإنى لأذكر الآن تلك الصورة التى ارتسمت فى خيالى وأنا طفل صغير، أقرأ القرآن فى المدرسة الأولية، حينما وصلت إلى هذه الآية. لقد خيل لى رجل على مكان مرتفع ذى حرف؛ وهو قائم يصلى، ورجلاه لا تثبتان على حرف المكان، فهو يتأرجح فى كل حركة، وهو معرض للسقوط فى أى لحظة!

ترى يبعد تصورى الآن كثيراً عن هذه الصورة الساذجة؟ ما أظن. فالاختلاف الذى طرأ، هو مجرد علمى اليوم، بأن هذا مثل يضرب لا حقيقة تشهد.

وذلك هو إعجاز التعبير، الذى تتقارب فى إدراكه شتى المدارك، ويصل كل منها إلى صورة حية مع اختلاف الأفهام!

٣ — ويريد أن يرسم نموذجا إنسانيا المكابر المعاند فى كل زمان ومكان. فإذا هو يرسمه فى يسر وسرعة ودقة على هذا المنوال:

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء، فظلوا فيه يعرجون. لقالوا: إنما سكّرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون » !

أو:

« ولو نزّلنا عليك كتابا فى قرطاس، فلمسوه بأيديهم. لقال الذين كفروا: إنْ هذا إلا سحر مبين » !

فيبرز من خلال هاتين الصورتين، نموذج إنسانى معهود. لهؤلاء الذين يلجون فى المكابرة على الرغم من كل برهان. ولكن القرآن لا يقول كهذا الذى تقول: يلجون فى المكابرة على الرغم من كل برهان — إنه ليرسم لهم صورة شاخصة أوضح من كل تعبير، لأنها تلمس الحس والضمير.

٤ — ثم ها هو ذا يصور حادثاً وقع: مشهداً من مشاهد الهزيمة. فيرسم المشهد كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة، والانفعالات المضمرة، وتلتقى فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية، كأنما يمثّل الحادث من جديد، ويقع مرة أخرى كما وقع فى المرة الأولى، دون أن يغفل منه قليل ولا كثير:

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم، إذ جاءتكم جنود، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتُلى المؤمنون وزُلزلوا زلزالا شديدا. وإذ يقول المنافقون، والذين فى قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا. وإذ قالت طائفة منهم: يا أهل يثرب لا مُقام لكم، فارجعوا. ويستأذن فريق منهم النبيّ يقولون: إن بيوتنا عورة — وما هى بعورة — إن يريدون إلا فرارا » .

فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة؛ وأية سمة من سمات الموقف الكثيرة، لم يسجلها هذا الشريط الدقيق المتحرك المساوق لحركة الموقف الأصيل؟

٥ — وهذا مشهد واحد من مشاهد القصص الكثيرة ، مشهد فى قصة الطوفان :

« وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » وفى هـذه اللحظة تتنبه فى نوح عاطفة الأبوة . فإن هنـاك ابنا له لم يؤمن ، وإنه ليعـلم أنه مغرق مع المغرقين . ولكن ها هو ذا الموج يطغى ، فيتغلب « الانسان » فى نفس نوح على « النبى » ويروح فى لهفة وضراعة ينادى ابنه :

« ونادى نوح ابنه ـ وكان فى معزل ـ يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » .

ولكن البُـنوّة العـاقة لا تحفل هذه العـاطفة ، والفتوة المغرورة تعتمد على القوة الشخصية .

(قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من المـاء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) .

وفى لحظة تتغير صفحة المشهد فى تعبير خاطف ، يصـور الموجة العاتية تطغى على كل شىء : (وحال بينهم الموج . فكان من المغرقين) .

إن السامع ليمسك أنفاسه فى هذه اللحظات القصار : «وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ؛ ونوح الوالد الملهوف، يبعث بالنداء تلو النداء ، وابنه الفتى المغرور، يأبى اجابة الدعاء، والموجة العاتية تحسم الموقف فى لحظة ؛ فكان من المغرقين » .

وإن الهول هنا ليقاس عداه فى النفس الحية — بين الوالد والمولود كما يقاس عداه فى الطبيعة ، حيث يطغى الطوفان ، على الذرى والوديان وإنهما لقياسان متكافئان !

٦ — والآن فإلى مشهد من مشاهد القيامة :

« يوم يدع الداع إلى شىء نُكُر . خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

فهذا مشهد من مشـاهد الحشر مختصر سريع ، ولـكنه شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث فى لحظة واحدة كأنها جراد منتشر — ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور هذا المشهد العجيب — وهذه الجموع ، تسرع فى سيرها نحو الداعى ، دون أن تعرف لمَ يدعوها ، فهو يدعوها إلى « شىء نكر » لا تدريه « خشعاً أبصارهم » وهـذا يكمل الصورة ويعطيها السمة الأخيرة . وفى وسط هذا التجمع والإسراع والخشوع «يقول الكافرون : هذا يوم عسر» .

فماذا بقى من المشهد لم يشخص بعد هذه العبارات القصار ؟

٧ — فإذا طرق القرآن موضوع الجدل حول إحياء الموتى مثلا ، صاغه فى قالب التصوير المؤثر ، ولمس به الحس والوجدان ، فيما ترى العين وفيما يستشعر الضمير :

« الله الذى يرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله ؛ فإذا أصاب به من يشاء من عباده ، إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لَمُبْلِسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير » .

هكذا مشهد بعد مشهد: إرسال الرياح . إثارة السحاب . بسطه فى السماء . جعله متراكما . خروج المطر من خلاله. نزول المطر ، استبشار من يصيبهم بعد يأسهم إحياء الأرض بعد موتها ... لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال ، وبعد تركها تؤثر فى النفس على مهل إلى : « إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » فى أنسب اللحظات النفسية بهذا التقرير

* * *

هذه نماذج قليلة لطريقة القرآن العامة فى التعبير عن جميع الأغراض ، سواء كان الغرض تبشيراً أو تحذيراً . قصة وقعت أو حادثاً سيقع . منطقاً للاقناع . أو دعوة للايمان . وصفاً للحياة الدنيا أو للحياة الأخرى . تمثيلا لمحسوس أو ملموس . إبرازاً لظاهر أو لمضمر . بيانا لخاطر فى الضمير أو لمشهد منظور .

هذه الطريقة الموحدة . هـذه القاعدة الكبيرة . هى : « التصوير » فى أرقى آفاق التصوير .

سيد قطب

شهيد كربلاء

للأستاذ محمود الخفيف



خفضتُ اليراعَ لذكرى الشهيدِ   وأشفقتُ من ذلكَ المطلبِ
وحيَّرَ شعرىَ هذا الجلالُ   فهل من سبيلٍ إلى مأربى ؟
لذكرى الحسينِ خفضتُ اليراعَ   وأكبرتُ ذكراهُ من ملعبى
لذكرى الأبىِّ النجيدِ القوىِّ
الكريمِ الزكىِّ ابنِ بنتِ النبى

هلالَ المحرَّمِ ، لونُ السماءِ   على جانبيكَ خيالُ الدمِ
ترقرقَ فى الأفقِ هذا النجيعُ   وألقَى الخضابَ على الأنجُمِ
وجرَّ عليه السوادَ الدجى   فباتَ به الأفقُ فى مأتمِ
طيوفٌ تردَّدُ فى خاطرى   لكلٍّ معانى الأسى تنتمى

خيالٌ يؤرقُنى فى الدجى   وأصحو الغداةَ على ذكرهِ
تفيضُ له أدمعى الغالياتُ   ويذهلُ قلبى عن صبرهِ
وإنى تجلدُ أقلُّ الخطوبَ   بعزمٍ تخاذلَ عن قهرهِ
وأحبسُ دمعى فكم داهمتنى   صروفُ الزمانِ فلم أجرهِ

فتى هاشمٍ يا غليلى له   جرى دمُهُ أنهرًا وانتثرْ
وقطِّعَ كالشاةِ سبطُ الرسولِ   وبشَّرَ قاتِلُهُ وافتخرْ
وهامتُهُ مثلُ رأسِ الجزورِ   على كفِّ جازرهِ تنتهرْ
على فمهِ قبلاتُ النبىِّ   وفى نحرهِ الرضا بالقدرْ

على الدهرِ رزءٌ لعمرى جديدٌ   وإن قدُمَ العهدُ بالواقعهْ
غليلى له وقدةٌ فى حشاىَ   وعيناىَ كالمزنةِ الهامعهْ
قليلٌ له ما تريقُ الجفونُ   وما تحملُ الأنفسُ الجازعهْ
دعوتُ القريضَ فخارَ القريضُ   وحارتْ يراعتِىَ الخاشعهْ

تأسَّ وهاتِ حديثَ الشهيدِ   حبيسَ الدموعِ كظيمَ الألمْ
فما فى البطولاتِ محلٌ البكاءِ   ولكنْ معانى الفدا والشممْ
ستُطوى العصورُ وذكرى الحسينِ
على الدهرِ تخفقُ خفقَ العلمْ
إمامُ الهدى زينةُ المتقين   منارُ الحجازِ العلىُّ الشممْ

مناطُ الخلافةِ من هاشمٍ   دعا باسمهِ نفرٌ بالعراقِ
أبوا أن يطيعوا يزيدَ وقالوا   أميةُ فى الناسِ أصلُ الشقاقِ
ألم يدعُ فى الشامِ جهرًا أبوه   إلى فتنةٍ بعدَ سوءِ ائتلاقِ ؟
وما نالَ ما نالهُ من علىٍّ   بغيرِ الأذى والخنى والنفاقِ !

ولما قضى نحبهُ غيلةً   علىٌّ وطاحَ الردى بالحسنْ
وساسَ معاويةُ المسلمينَ   تكشَّفَ من أمرهِ ما بطنْ
فأنكرَ فى الحكمِ شورى الأمورِ
ودلَّ بسلطانهِ وافتتنْ
ومهَّدَ من بعدهِ لابنهِ   فنالَ العهودَ بكلِّ ثمنْ

وباتَ على الضغنِ أهلُ الحجازِ   يُسرُّونَ سخطًا على الظالمِ
فللموتُ أيسرُ من طاعةٍ   لسيفِ معاويةَ الغاشمِ
أباةٌ فما عرفوا زلفةً   ولا رهبوا سطوةَ الحاكمِ
يرونَ الخلافةَ شورى فلا   أميةَ بالرأىِ أو هاشمِ

دعاهُ إلى الكوفةِ الثائرونَ   يقولونَ إنا عصينا يزيدا

تَرى فى تَرَدِّيهِ بُرْدَ النبيِّ   عَلى المسلمينَ بَلاءً جديدا
منَ العُصْبَةِ الباطشينَ الغلاظِ   إلى الجَوْرِ يَحْمِلُ قَلْباً حديدا
إمامٌ لنا ؟ ساء هذا إماماً   يرى الناسَ إلاّ ذويه عبيدا

إمامٌ لنا فى مكانِ الحُسَيْن   يقومُ على الأمرِ دُنيا ودينا ؟
فأينَ من النَّجْمِ بَعْضُ الحصى   وما كانَ إلاّ التُّرابَ الهَينا
وهَلْ كابْنِ فاطمةٍ فى الرجالِ   إذا قُلِّبَ الطَّرْفُ فى العالمينا ؟
أشدَّ الرجالِ يَدًا فى الجهادِ   وأضواهمُ فى المصلّى جَبينا

إلينا ... إلينا ؟ ، فتى هاشمٍ   إلينا فليسَ سِواكَ الهُدى
سَنَهْزأُ إن جئتنا بالخطوبِ   ونَضْربُ حتّى يخافَ الرَّدى
ويَفْديكَ آلافنا الدّارعونَ   وهَلْ ثَمَّ غَيْرُكَ من يُفْتدى ؟
ويَفْزَعُ خَصْمُكَ يابنَ الإمامِ   ويطّرِحُ الخوفَ مَنْ أيّدا

ولَبّى الحُسَيْنُ وما مِثْلُهُ   إذا هَمَّ بالقومِ مَنْ يَنْتَرِبُ
لَهُ هِمّةٌ إن تداعَى الرجالُ   وسَبْقٌ إلى المَكْرُماتِ عجيبُ
إذا اسْتَصْرَخَ الحَقُّ يَوْماً بهِ   فكلُّ عَناءٍ إليهِ حبيبُ
وما كانَ عَنْ نَزَقٍ إذْ أجابَ   ولكنَّهُ الشَّمَّمُ المستجيبُ

وكائنْ بمكّةَ مِنْ ناصحٍ   يُعَذِّبُهُ أنّهُ راحــلُ
يظُنُّونَ شَرًّا بأهْلِ العراقِ   فكلٌّ هُناكَ لَهُ خاذِلُ
وكم ذا احتواهُ فأوْحى لَهُ   لِيَصْرِفَهُ مَجْلِسٌ حافِلُ
يُرَدِّدُ نُصْحَهُمُ الناصحونَ   ولِلْقَدَرِ الكاتِمُ الفاصِلُ.

تَخَيَّرَ مِن أهْلِهِ (مُسْلِماً)[1]   إليهِمْ يَجُوبُ ويَسْتَطْلِعُ
قُلوبُ العِراقِ حُسَيْنيّةٌ   فليتَ سيوفَهُمُ تَتْبَعُ
يَزيديّةٌ تتـــوق يَزيدَ   فهُنَّ لِسُلْطانِهِ أطْوَعُ
إذا حَمَلَ الإمّاتُ السُّيوفَ   فمِنْ حَطَبٍ هُنَّ أو أضْيَعُ

قضى نَحْبَهُ ابنُ عَقيلٍ فما   تَسامَعَ أهْلُ الحجازِ به
تَبَرّأَ مِنْهُ الذينَ دَعَوْا   ومَنْ عاهَدوا اللهَ مِن حِزْبِهِ
وأسْلَمَهُ للناسُ لابنِ زيادٍ   رَسُولِ يَزيدَ إلى حَرْبِهِ
فسارَ الرجالُ بهِ مُوثَقاً   ومِنْ قِمّةِ القَصْرِ ألْقَوا بهِ

مَضى الرَّكْبُ يطلُبُ أرْضَ العِراقِ
فيا حادِيَ الرَّكْبِ أبْطِئْ بهِ
تَمَهَّلْ بِرَكْبِكَ إنَّ الزَّمانَ   عَجُولٌ بما ساقَ مِنْ خَطْبِهِ
رُوَيْدَكَ ياحادِيَ الرَّكْبِ قِفْ   ومِلْ بالسَّوابِقِ مِنْ نُجْبِهِ
أدِرْ وجْهَهُ أيُّهذا الدَّليلُ   وعُدْ بالحُسَيْن ... ألاَ عُدْ بِهِ

سُكَيْنَةُ فى الرَّكْبِ تُخْفى الدُّموعَ
وتُخْفي هَواجِسَها زَيْنَبُ
تَقُولُ لَئِنْ أسْلَمَتْنا الرجالُ   فأينَ مِنَ الفاتِكِ المَهْرَبُ ؟
يَزيد من الصَّخْرِ قَلْبٌ لَهُ   وأكْبادُ أصحابِهِ أصْلَبُ
فوا حَرَبا إن هذا المسيرَ   إلى غَيْهَبٍ خَلْفَهُ غَيْهَبُ

أنَبْرُزُ فى قِلّةٍ للرجالِ   ونبغى بهِ ثَمَّ أمراً جليلا ؟
فمَنْ للبنينَ غَدًا والبناتِ   إذا خَرَّ فينا الحُسَيْنُ قتيلا
ومَنْ للإمامَةِ مِنْ هاشمٍ   إذا قتلوهُ هُناكَ قبيلا
عذابٌ لنفسىَ هذا الرحيلُ   ألا ساء هذا لَعَمْري رَحيلا

مَضى الرَّكْبُ عَجْلانَ صَوْبَ الفُراتِ
فهَلاَّ انثنَى الرَّكْبُ عَنْ وِرْدِهِ ؟.
مَضى بالحُسَيْنِ وآلِ الحُسَيْنِ   وَشِمٍ ثمانينَ مِنْ جُنْدِهِ
ثمانينَ باعوا لَدَيهِ الحياةَ   سَماحاً وساروا على عَهْدِهِ
إلى حَيْثُ لا يَسْتَقِرُّ امْرُؤٌ   ولاَ يَقْرُبُ السَّيْفُ مِنْ غِمْدِهِ

عَلَى فَرْسَخَينِ تَراءى الفُراتُ   وأوْمأ للكوفَةِ السّالِكونا
تَلَفَّتَ لِلنَّهْرِ مُسْتَوْحِشاً   حُسَيْنُ وراحَ يظن الظنونا
فأيْنَ الدُّعاةُ وأيْنَ الحُماةُ   وأيْنَ الكُماةُ بها الدّارِعونا
رَأى القلْبُ ما لا تراهُ العيونُ   وبَاحَ الفضاء بما يُضْمِرُونَا

تَصَدّى له (الحُرُّ[1]) فى عَسْكَرٍ   فَسَدَّ عَلَيهِ مَجازَ الطريقِ
فمالَ عَنِ الكوفَةِ ابنُ الإمامِ
وفى النفسِ ضيقٌ بها أيُّ ضيقِ
تَغَشَّتْ مُحَيّاهُ سُحْبُ انقِباضٍ   وفى القلبِ وَسواسُ حُزْنٍ عَميقِ
نُكُولٌ ولُؤْمٌ ومَكْرٌ وغَدْرٌ   وخُلْفٌ عَلَى إثْرِ وَعْدٍ وثيقِ

(١) مسلم بن عقيل بن أبى طالب

(١) الحر بن يزيد أرسله عبيد الله بن زياد والى البصرة والكوفة .

يُسَايِرُهُ (الْحُرُّ) فى جيشه ورَكْبُ الحسين يجوبُ الفلا
غَفَا غَفْوَةً فرأى أنه يسيرُ إلى حتفه مُعْجَلا
تَسَايَرَ فى سيره جاهدًا فَحَطَّ به الجُهْدُ فى كَرْبلا
هُنَالِكَ حيثُ أحاط به غِلاظٌ يُسِرُّونَ أنْ يُقتَلا

وكاثَرَهُ وهْوَ فى قِلَّةٍ عَلَى الشَّطِّ من حَوْلِهِ عَسْكَرُ
وسَدُّوا إلى النَّهْرِ عنه الطريقَ فتدْمَعُ عيناهُ إذ ينظرُ
فَفِى مُخْدَعٍ بين تلك الخُدُورِ صِغَارٌ عن الماءِ لا تَصْبِرُ
وفى خَيْمَةٍ حَجَبَتْها السُّتُورُ جُفُونٌ مُقَرَّحَةٌ تُمْطِرُ

ألاَ كَمْ تطاولَ هذا العذابُ وكم لَمَحَتْ نُذُرُ الغاشِيَهْ
وكم أرْمَضَ الحَرُّ مِنْ مُهْجَةٍ وقَرَّحَ مِنْ كَبِدٍ صَادِيَهْ
سعيرٌ يُحَرِّقُ أحشاءَهُمْ إذا أبصروا حَوْلَهُمْ آنِيَهْ
وما شربوا غيرَ ماءٍ سَخِينٍ تَظَلُّ الجفونُ به هامِيَهْ

بنفسى صبيٌّ ذَوَى عودُهُ كَرَيْحَانَةٍ غَضَّةٍ تَذْبُلُ
تَظَلُّ تُعَلِّلُهُ أُمُّــــهُ وفى قلبها وَاغِلٌ يأكلُ
فلَوْ طلبوا ناظِرَيْهَا مَعًا لِيَشْرَبَ خَفَّتْ بما تَبْذُلُ
بمُهْجَتِهَا تشترى جُرْعَةً وماءُ الفُراتِ لهم سَلْسَلُ!

تقدَّمَ مُحْتَبِيًا بالحُسامِ حُسَيْنٌ وقال إليَّ: اسمعوا!
دَعَانِى لِنُصْرَتِهِمْ قَوْمُكُمْ وإنى إلى الحقِّ مَنْ يُسْرِعُ
فإمَّا أُلاقِى بِنُصْحِى يزيدَ هُنَالِكَ بالشَّامِ أو أَرْجِعُ
فإنْ تَكْرَهُوا تَيْنِكَ الخَصْلَتَيْنِ
إلى التُّرْكِ أَفْتَحُ أو أُصْرَعُ

أبَوْهَا عليه فما عِنْدَهُمْ سِوَى أن يُبايِعَ مُسْتَسْلِمَا
أَصَرُّوا عَلَى لُؤْمِهِمْ مُوعِدِينَ وقد عرفوا شيخَهُمْ أَلْأَمَا
وكم صارخٍ فيهمُ بالعَدَاءِ جَبَانٍ تَعَوَّدَ أنْ يُحْجِمَا
سُيُوفُهُمُو حَوْلَهُ تَنْتَضِى كَفَاهُ الأسى والضَّنَى والظَّمَا!

ولكنَّهُ عائفٌ ذِلَّةً وريحُ الرَّدَى حولَهُ تَعْصِفُ
صَبُورٌ عَنِ الماءِ فى مَوْقِفٍ تَرَى الأرضَ مِنْ هَوْلِهِ تَرْجُفُ
ولو كان فى نصفِ تلك الجموعِ لما كان عن بطشِهِ مَصْرِفُ

ولولا عقائلُ بين الخدورِ تَصَدَّى لهم وحْدَهُ يَزْحَفُ

تَدَبَّرَ حِينَ احتواهُ الظلامُ فَزَيَّنَ للتَّابِعِينَ النَّجاءَ
خذوا البِيدَ مُنْجَاتَكُم واجعلوا
سَــــوادَ الدجى فى سُرَاكُمْ غِطاء
فما طلبوا اليومَ إلاَّ دَمِى فإن تَسلموا لَسْتُ أَخْشَى الفِداء
وليس عليكم لَعَمْرِىَ عارٌ ولكن عَلَى طالبيكُمْ ظِماء

تتابَعَ أصحابُهُ يُقْسِمُونَ لَيَلْقَوْنَ بين يديهِ الرَّدى
إذا بذل النفسَ منَّا غَدًا شَهِيدٌ فَفِى الحق ما استُشهدا
وقال بنو عَمِّهِ: مَنْ يخوضُ سوانا فِدَاكَ الحُتُوفَ غدا؟
قليلٌ إذا ما لفظنا النفوسَ سَمَاحًا لَعَمْرُ أبيكَ الفِدا

ورَدَّدَ فى الدهر أُرْجُوزَةً وكيف يَسُومُ الكِرامَ الهَوانَا
بَكَتْ أُخْتُهُ وأَتَتْ بابَهُ تَشُقُّ الثيابَ عليه حَنَانَا
فَهَدْهَدَهَا ونهاها الحُسَيْنُ وقال: رَضِيتُ بهذا امتحانَا
فَيَا أُخْتُ لا تأثمى إنْ قُتِلْتُ وإلاَّ امْتَهَنْتِ مَقامى امْتِهَانَا

وباتت خيولُ العدا حَوْلَهم تَدُورُ فتَقْرُبُ أو تبعدُ
لَدَى كُلِّ رُكْنٍ حَدِيدٌ يَرِنُّ وفى كل زاويةٍ مَرْصَدُ
وجَمْعٌ يروحُ وجَمْعٌ يجيءُ ويسخر ذاكَ وذا يوعِدُ
ومن خلفِ أستارِهِ فى الخِباءِ حُسَيْنٌ لخالقه يسجدُ

(البقية فى العدد القادم) الخفيف

ثورة الإسلام

للأستاذ حسن جواد الجشي



كان الإسلام ثورة هائلة من ثورات الطبيعة الكبرى على جمود العقل البشرى وتحجره ، وأطلقه بعد أن كان موثقاً فى قيود الأوهام والخرافات ، وأشعره بقيمته بعد أن كان فانياً فى تفاهات الحياة ومغائرها ؛ وقلب أوضاع تلك الحياة رأساً على عقب وأبدلها بأوضاع أجدر بشرف الإنسان وكرامته . وتلك هى وظيفة الثورة الإصلاحية فى كل زمان .

وإذا كانت الثورة كما يعرفها أحد كتاب الغرب (هى سقوط وتهدم يحدثان فى فترة صغيرة لجميع ما كان يعد إلى ذلك الوقت أسلاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية فى الأمة) فما أحرانا ونحن بصدد التحدث عن مبادئ الثورة الإسلامية أو عن ثورة الإسلام أن نلقى نظرة خاطفة على بعض النظم التى جاء الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها لا بين العرب فحسب ، وإنما فى غيرهم من سائر الأمم أيضاً ، لأن الأثر الذى تركه الإسلام لم يقتصر على العرب ، وإنما شمل أمماً غيرهم ولو فى الشكل دون الجوهر .

يقول الكاتب الانجليزى (H. G. Wells) هـ ج . ولز فى كتابه « موجز تاريخ العالم » عند تحدثه عن تلك الحقبة من تاريخ البشر ما ترجمته : « لو أن متنبئاً من هواة التاريخ استعرض العالم فى مستهل القرن السابع لكان من المحتمل أن ينتهى إلى الحكم بأنه لن تمضى إلا بضعة قرون حتى تصبح قارتا أوربا وآسيا خاضعتين للحكم المغولى القائم فى الصين ؛ إذ لم يكن هناك ما يدل على وجود أى نظام أو اتحاد فى أوربا الغربية ؛ أما الامبراطوريتان الرومانية والفارسية فقد كانت كل منهما منطوية على هدم الأخرى وتحطيمها ؛ وإذا التفت إلى الهند فإنه يجدها منقسمة على نفسها خاوية ... » ثم يقول : « والخطأ الذى كان من المحتمل جداً أن يرتكبه متنبئنا هذا فى استعراضه هو تجاهله للقوى الأصيلة الكامنة فى الصحراء العربية » .

وفى هذا القول دلالة واضحة على أن العالم كان حينذاك يتخبط فى غياهب الفوضى ودياجير الانحلال ، وأنه إذا كان ثمة بصيص أمل لإنقاذه فآفاق الصحراء العربية هى التى كان يتخايل على حواشيها هذا البصيص ؛ لا لأن سكانها كانوا فى يقظة عقلية تؤهلهم للقيام بدور المنقذ ، كلا بل لأن أرواحهم كانت نقية لم تدنسها شوائب المدنية أو يدب إليها وهن النعيم . فما هو إلا أن تستثيرها وتوجهها الوجهة الصالحة حتى تأتى بالعجائب فى ميادين الثقافة والتقدم .

وعلى خلاف ذلك كانت بيزنطه وفارس ، فقد كانتا فى حروب متواصلة تنتصر هذه مرة وتفوز تلك أخرى ؛ وبرغم ذلك لم تكن الحالة السياسية الداخلية فى كلتا الامبراطوريتين لتعرف الهدوء والاستقرار . أما الأخلاق فقد بلغت منتهى التدهور والانحطاط حتى عادت النفوس ولا مهما زلها يدفعها ويثير فعاليتها غير الشهوة الجنسية ، وإلا فما معنى ذيوع مذهب مزدك فى ذلك العصر — وهو مذهب إباحى هدام — لو لم تكن النفوس مستعدة لقبوله ؟ !

وإلى جانب ذلك كان يقوم فى أكثر أنحاء العالم تقريباً نظام من الاسترقاق الفظيع الذى لا يعرف غير العنف والقوة فى معاملة الأرقاء والمستعبدين ، فكان مباحاً للسادة أن يتصرفوا فى حيوات أرقائهم كما يتصرفون فى سائر أمتعتهم ، فإن شاءوا أبقوا وإن شاءوا أبادوا دون أن يسألوا أمام قانون أو عرف . وإذا عاقبوهم فبالكى على الجباه والجلد بالسياط إلى آخر ما هنالك من ضروب القسوة .

وقد يخطر لأحد القراء أن يسأل : وأين إذن تعاليم المسيحية

لتكشف من غرب هذه الشهوات وتحدّ من جموحها وتعيد النفوس إلى نقاوة الفطرة وطهارة الإيمان . . والجواب على ذلك أرك المؤرخ الانجليزى « جيبون » إذ هو خير من توفر على دراسة هذا العصر . . قال جيبون : « إن النصرانية فى القرن السابع للميلاد قد استحالت وثنية ، فقد أصبحت الوجوه تولى شطر الأصنام والأنصاب التى حلت محل الهياكل والمعابد وأخذ مكان عرش الله وعظمته القديسون والشهداء ، وحارت الأفهام فى معنى التثليث والاتحاد والحلول وعموا عن التوحيد » .

أما فى مكة والطائف فلم يكن الوضع أحسن منه فى بيزنطه وفارس ؛ فقد فشا فيهما الانحلال الخلق وسفلت مكانة المرأة حتى وأد الآباء بناتهم ، وجاس المرابون خلال الشعب يمتصون دمه مستغلين فقره وحاجته ، حتى أكره بعض المحتاجين بناتهم على البغاء ليستطيعوا وفاء ما ركبهم من ديون ؛ فلما جاء القرآن نهاهم عن ذلك « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

* * *

شرور تعلوها شرور ! وظلمات فوقها ظلمات ! فلابد من النور ! لابد من النور ! وإلا تاه القطيع وتردى فى هاوية الفناء !

وشع النور ! وتلألأ واستفاض ! وإذا بصوت محمد يتعالى فى شعاب مكة وبطاحها منادياً : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا » .

وكانت تلك الدعوة شرارة الثورة الكبرى ، الثورة التى قلبت الأوضاع الجائرة ، ومحت النظم البائرة ، ونقلت العالم من حال إلى حال ، والإنسانية من ضعة إلى جلال .

لقد استهل الاسلام ثورته بالدعوة لتوحيد الله وقرن النجاح بهذا التوحيد ، فما معنى ذلك ؟ معناه أن الاسلام يعتبر وعى الروح أصلاً لوعى العقل ؛ معناه أن الأمم مهما وفر حظها من ثقافة العقل ، فان هذه الثقافة لابد لها من عقيدة روحية تسندها وتنير لها المسالك وتأخذ بيدها نحو صالحها وصالح الحياة الانسانية ، وإلا هدمت ما شيدت واقتلعت ما زرعت وتلبست طبائع الهر فأكلت ما أنجبت ؛ ولهذا وجه محمد أول ما وجه من جهود نحو غرس هذه العقيدة الروحية ، فعمل على تطهير الأرواح مما علق بها من أدران الشرك واستبطانها من عقابيل الوثنية ، ونادى أول ما نادى أن لا إله إلا الله ، فلا الشهوات بعد اليوم ولا القوة ولا المال ولا الأصنام هى التى تمنولها الحياة ، وإنما تمنو لله الأحد الصمد خالق الخلق ومدبر كل ما فى الكون . وبهذا مهد السبيل للنفس الإنسانية لتفلت من قيودها الثقيلة المرهقة وتتصل حرة ببارئها تستلهم منه العون والهداية على مواصلة الكفاح وسلوك أقوم السبل دون لجوء لوساطة كاهن أو شفاعة ولى « وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

هذا التسامى بالنفس الإنسانية والتعالى بها عن ضلالات العقول وزيغ البصائر هو الذى يفتقده الباحث فى كثير من تاريخ الثورات البشرية ، فالفرنسيون مثلاً بعد أن ثاروا ثورتهم الكبرى وحطموا معاقل الظلم وزلزلوا معالم الاستبداد وأعلنوا حقوق الإنسان الطبيعية التى تستند إلى مركزه فى الحياة ، ساق الثائرون أنفسهم أكثر من ألفين من خيرة رجال الثورة إلى المشانق ثم عمدوا إلى أجمل فتاة فى باريس ووضعوها فى إحدى الكنائس وأخذوا يقدمون لها فروض العبادة ومراسيم الخشوع باسم « ربة العقل » ، ناسين ما أعلنوه قبل ذلك من حرية البشر وتساويهم ؛ وما كانوا ليقعوا فى مثل هذا الهوس والتطرف ، لو أن ثورتهم استندت إلى وعى روحى شامل كثورة الإسلام .

والحقيقة أن هذا الوعى الروحى الذى يقدر الشخصية الانسانية ويحدد صلة هذه الشخصية بالروح السارية فى هذا الكون ثم صلتها بسائر الأحياء والكائنات ، نعم هذا الوعى هو الذى صقل النفوس المسلمة وهيأها لسائر الانقلابات الاجتماعية والعقلية لأنه وجهها وجهة واحدة وقضى على شعور الخضوع الرائن عليها فنتج عن ذلك إحساس قوى بكفايتها وقدرتها على الفهم والتدبر .

ومن هنا كان ذلك الانقلاب العظيم الذى أحدثه الاسلام فى تقدير العقل واحترام أحكامه باعتباره هادى البشر — بعد الروح — فى جهادهم نحو الكمال. فلقد كان الناس قبل ذلك أسرى موروثاتهم وتقاليدهم لا يصدقون إلا ما كان عليه آباؤهم ، وما كان عليه آباؤهم هو الجهل والجمود ، فدعاهم الاسلام إلى التفكير

والتأمل وشبه الذين لايعقلون منهم بالأنعام بل أحط منزلة « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل أضل سبيلا » ؛ ولذلك كان سلاح الاسلام الوحيد لغزو النفوس هو الحجة العقلية والبرهان الاقناعي ... ويوم سأل الكفار الرسول أن يأتيهم بما عددوا من المعجزات أجابهم دهشاً : « سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ! » .

أليس في ذلك إيذان بأن البشرية قد بلغت طوراً لا يليق بها فيه ان تقنع بغير ماعليه العقل، وأن الأسلام يتمشى مع هذا العقل ؟ ثم ما قولنا في دين يجعل تفكر ساعة خيراً من عبادة ستين سنة ؟ إنه - وربي - لدين يجدر بالبشرية أن تحوطه برعايتها وتجدّ في تفهم أغراضه ومراميه ؛ لأنه كان فاصلاً بين عصرين مختلفين من عصورها : عصر السحر والخرافات وعصر العقل والعلم ، وبذلك نقلها نقلة وسّعت آفاق وعيها وألهبتها شوقاً للمعرفة والاطلاع ، فكان ذلك ارهاصاً لكل التطورات الثقافية والعلمية التي تم بها العالم بعد ذلك .

وعلى أساس هذا الوعي الروحي والعقلي نقل الأسلام مبدأ التوحيد من منطقة العقيدة إلى مجال الاجتماع فثار على جميع الفواصل المصطنعة بين الأفراد والأمم ، وحارب كل فكرة من شأنها أن تجر الى التنابذ والتنافر، وقرر أن البشر وحدة لا تتجزأ كلهم من آدم وآدم من تراب ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم ، واتقاهم أبرهم عملاً وأخلصهم سمياً ، لا أكثرهم تهجداً وأطولهم عبادة ، وإذا كان الناس قد خلقوا شعوباً وقبائل مختلفة فلكي يتعارفوا ويتعاونوا لتستفيد كل أمة من مواهب الأمم الأخرى وخصائصها لا أن يتخذوا هذا الاختلاف ذريعة للتناحر والتباغض (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . والأمم والأفراد يختلفون طبعاً في استعدادهم للتقوى وللتعاون مع الغير باختلاف بيئاتهم وظروف حياتهم .

وتطبيقاً لهذ المبدأ من المساواة والتوحيد الاجتماعي أخذ الاسلام بيد المرأة ورفعها من مراغة المهانة والاستعباد إلى ذروة الشرف والكرامة مقرراً حقها الطبيعي في الحياة : (ولهن مثل الذي عليهن) .

وإذا التفتنا بعد هذا الى الثورة التي احدثها الإسلام في حياة البشر الاقتصادية وجدنا عجباً من العجب، وجدنا نظاماً اقتصادياً لو أخذ به البشر وتمسكوا بأهدابه لكفوا كثيراً من ويلاتهم الاجتماعية والخلقية لأنه يكفيهم الفقر ، والفقر منبع أكثر الشرور والمصائب .

لقد كان النظام الطبقي بالغاً اشده قبل الأسلام فكان الاغنياء والأشراف يستغلون جهود الشعب ويبتزون ثمرات اتعابه - كما يفعلون اليوم - ويثقلون كاهله بمختلف الأتاوات والضرائب دون أن يستطيع دفع ذلك أو مناهضته . والى جانب هؤلاء كان المرابون الجشمون يعتصرون ما تبقى من هذه الجهود غير راحمين ولا مشفقين . فلما جاء الاسلام قلب هذه الأوضاع واعاد الحق الى نصابه فحرم الربا وجعل في أموال هؤلاء الأغنياء حقاً معلوماً للمحرومين ملزمين شرعاً وقسراً بادائه لهم ، بعد أن كان هؤلاء المحرومون ملزمين بتقديم ثمرات اتعابهم للاغنياء دون مقابل . وبهذا التشريع أقام الاسلام الدعامة الثالثة التي هي التوازن الاقتصادي ؛ وهو كالتوحيد الاجتماعي عامل ضروري في هناء البشر وتقدمهم كما أنه نتيجة حتمية لمبدأ التوحيد .

هذه أقباس من تلك الشعلة العظيمة التي تفتح عنها قلب النبي فتلقتها القلوب العربية السلمة ، وسهرت عليها تغذيها وتلهب ضرامها ، حتى إذا تم لها ذلك انداحت بها في أطراف الدنيا تزرع جذوراتها في كل نفس تتصل بها فتذيب أرجاسها ، وتنفث فيها الإيمان والقوة . . فيا ليت شعري ما الذي حل بالمسلمين اليوم - وهم أحفاد أولئك المناوير - حتى خمدت هذه الشعلة في نفوسهم وعادوا غرضاً لكل طامع وهدفاً لكل مريد ! ؟

إن في الأمر لسرا ، على أن السر اجلى من أن نجدّ في الكشف عنه . . السر أن المسلمين (وقد طال عليهم العهد وتنكروا لبيئتهم الصحراوية الأولى) . نسوا مبادىء دينهم وتمسكوا بالأعراض والقشور ، واقتسموا بينهم شيعاً واحزاباً يتنابذون ويتهاترون .

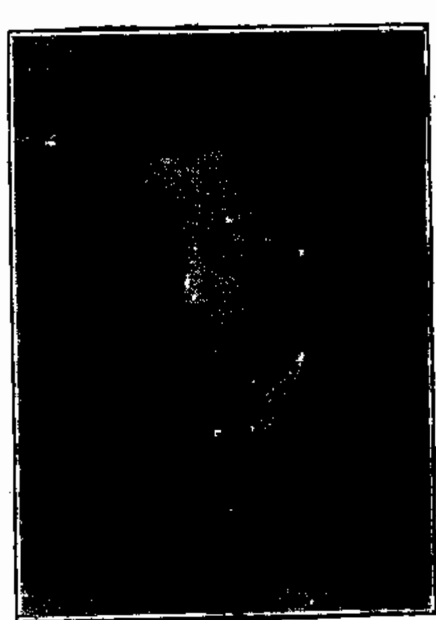
فيا قلب النبي شعلة كتلك الشعلة ! عساها تحرك هذه النفوس الهوامد عساها !

(القاهرة)

حسن فؤاد الجشي
عضو البعثة البحرانية

مؤامرة تخيب

للأستاذ محمد عبد الغني حسن



الأشخاص : أبو جهل . أبو سفيان . الشيطان . أمية بن خلف . جماعة من قريش

المكان : متربص قرب دار النبي عليه السلام

الزمان : ليلة مظلمة من ليالي المحرم ...

أبو جهل :

هذا الفتى ضلَّ عن دُنيا أبوته — وراح ينشر في آبائه دينا
إني لأخشى عليكم من تخبُّطه — مَسًّا ويحسبه هَدْيًا وتبيينا
قالوا أمين ، فقلنا ما أمانته ؟ — ما كان حتى على الأصنام مأمونا
لا كان من هاشم فينا حكومته — إن صار هذا الفتى مستحكمًا فينا

أبو سفيان :

أيا بني هاشم لم تكف إمرتكم — ولا سدانتكم للبيت والغَلَبُ
حتى يجيء نبيٌّ بين أظهُركم — دَعْوى ولكنها يا هاشمُ كذبُ

رجل من بني أمية :

إن السدانة فيكم — عادتْ فصارت نبوَّه
بئس البُنوّة ممن — لم يَرْعَ حق الأبوَّه

أبو جهل :

لا كنتُ يومًا من بني مَخزومِ — السائدينَ الناسَ بالحلومِ
والبالغين المجدَ في الصميمِ — إن لم يكن محمدٌ غريمي

الشيطان يهمس :

هذا مجالُ الدسِّ والتفريقِ — بين الصديق الحُرِّ والصديقِ
لا كنتُ من نارٍ ومن حريقِ — إن لم أسِرْ فيهم على طريقِ

ثم يجهر فيهم :

هذا الفتى يَهذي بكل وساوس — ويُذيعها ما بينكم قرآنا
أن كان ربُّكمو يَخُصُّ بفضله — لِمَ لَمْ يَخُصَّ بفضله عدنانا ؟

أبو سفيان :

دَعُوا عدنانَ والماضـ — ـينَ فالميْتُ لا يحيا
أمَا في النَّفَرِ الأحيا — ء مَنْ يَستقبلُ الوحيا ؟

أبو جهل مخاطباً أبا سفيان :

لعلك أَوْلى به من فتًى — أقامَ على الفقر يَرْعى الغنمْ !

الشيطان مقهقهاً :

وَمِنْ عَجَبٍ أنه مُدَّعٍ — بإغداده كيف يَرْعى الأُمم

أبو سفيان :

نحن لسنا في حاجة لرعايهْ — ما لهذا الفتى يزيدُ غوايهْ
قد دعوناه للهداية لكن — ليس في مثله تصحُّ الهدايهْ
إذا سئمتم من فتًى — فأسلموه للردى ! !
كيف يَبيتُ قائمًا — في حَيكمُ وما اهتدى ؟

الشيطان :

إني أرى سحابةً — مِنْ حوله وَعَددا
فإن تركتم أمره الـ — ـيومَ فقد يَعْلو غدا
ناشدتكم أصنامكم — أن تُمهلوا فيه المُدى !
وأن تُريحوا المصرَ منـ — ـه والمدى والأبدا ...

أبو جهل :

ما كنتَ يا شيطان إلا — رَجْعَ نفسي والصدى
لم تَعْدُ ما فيَّ من الرغبـ — ـة وُقِّيتَ الهدى ... ! !
قصدتُ بالأمس الفتى — وكان يغشى المسجدا
أردت فَضْخَ رأسه — بحجر ... فما بدا ...

أمية :

لعله قد سحر الـ — ـعينين منكَ واليَدا !

مخيبةٌ تخطىء كفَّ الكَ الفتى محمـدا
وليس أقوى منك كفَّ اً أو أشدَّ عَضُدا

أبو جهل :

أتاني الضرب لا أخيب ولـكن خانني ساعدي غَداة قصدته
عجباً فاتني بفحل من النو ق ولو كان لَهذَماً ما فَتُّه
حجرٌ في يدي تيبَّس لما كدت أهوى عليه حتى قذفته
إن يكن أمس قد تولى نهذي لحظات الرّدى وذلك وقته

أبو سفيان :

فلنتربصْ للفتى وهو على وِسَادِه
حيث الظلامُ في رُبى الحـ ىِّ وفي وهاده
فلا يرانا أحد يا قوم من آحاده
فنستريحَ من محمدٍ به ومن جهاده

أمية :

الليل أرخى على الدنيا ذوائبه وفيه للبطش أوطارٌ وآراب
لعل جبريلَ يحميه إذا هبطت عليه منا بجنح الليل أسرابُ!
فينا كراً أبناه في المحراب مُستوياً فهل يكفُّ أذانا عنه محرابُ ؟

أبو سفيان ينظر من ثقب إلى مخدع النبي :

أراه في البُردة الخضراء مضطجعاً
وسوف نَصْبغها بالدمِّ - حمراء
إذا الصباح تجلّى عن تآمرُنا فسوف يحمل أخباراً وأنباء !

أبو جهل :

أقضَّ هذا الفتى بالأمس مَضْجَعَنا
فليس نذهبُ فيـه اليومَ آراء
ألم يسخِّفْ لنا دُنيا مورَّثةً وأمةً وديانات وآباء ...
إني لَأعجبُ مِنْ أحوال صاحبكم
أجاء يهدِمُنا أم جاء بنَّاء ؟ !

قرشي لزميله :

انظر إلى رأسى تجدْ تُرابا ! !

زميله :

أواهما أراكَ أم مرْتابا ؟ !

زميل آخر :

أرى أمامَ ناظري ضَبابا يمتدُّ دون رؤيتى حجابا !

زميل رابع :

ليس ضباباً ما أرى ... وإنما كأنما أصيب لَحْظي بالعمى
فلا أرى المضيء إلا مُظلما ...

أبو سفيان :

أواهمون كلكمْ ؟ لعل جِنًّا مسَّكمْ
ما الرأي يا أبا الحكَمْ ؟ فأنتَ حبرُ محتكَمْ ...

أبو جهل متطلعاً إلى مخدع النبي :

محمدُ إنّا نزَل هاهنا قرير الوسادة في مَضْجَعِه
ينام ولم يدر أن قريشاً تهيئُ للبتِّ في مصرَعِه ...

واحد منهم يقول :

محمدُ قد فرَّ من بيننا وما كان لحظي بالكاذبِ
محمدُ أفلت من كفِّنا فيا حسرة الأمل الذاهب!

آخر يقول :

وما كان في مضجع الهاربِ نزيلٌ سوى ابن أبي طالب ...

محمد عبد الغني حسن

العقل في القرآن والحديث

للأستاذ قدري حافظ طوقان

العقل أساس الدين ومنبع السلم ومطلعه، وهل تقدم علم أو ازدهر فن إلا على أساس العقل؟ وهل يستقيم دين بلا عقل؟ وهل يعرف إنسان ما أمر الله به وما نهى عنه إلا بالعقل؟

وعلى أساس العقل شرعت الشرائع وسنت القوانين وقامت الحضارات وامتدت المدنيات. لهذا لا عجب إذا ورد ذكره في كتاب الله وعلى لسان نبيه الكريم. فقد شرف الله العقل وأعلى مكانته، وعظم الرسول العقل وقدس حرمته. وعجده الفلاسفة والحكماء والعلماء فصرفوا جهودهم إلى إعلاء شأنه بالبحث فيه والرجوع اليه

لقد أحل القرآن العقل منزلاً سامياً وجعله نوراً يهدى به الناس وطالبهم باستعماله والتحاكم اليه وسماه نوراً في قوله تعالى: « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ... » وسمى العلم المستفاد منه روحاً ووحياً فقال تعالى: « وأوحينا إليك روحاً من أمرنا ... » وقال: « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ... ».

وحين يجادل القرآن الماديين والدهريين وأرباب الملل والنحل إنما يجادلهم بالبرهان ويدعوهم إلى إنعام النظر والفكر، يتجلى ذلك في قوله تعالى: « لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل. أولئك هم الغافلون. » وقد حمل القرآن على المقلدين الذين يعطلون عقولهم ولا يستعملونها، فقال في موضع « إن شر الدواب عند الله الصم البكم العمى الذين لا يعقلون » وقال في موضع آخر. « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » وكثيراً ما وردت آيات تنتهي بهذه الجوامع « بل أكثرهم لا يعقلون » « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، أفلا تسمعون؟ إنما يتذكر أولو الألباب، وفي أنفسكم أفلا تبصرون . . » ولم يقف القرآن عند هذه الحدود، بل أمر بإحسان استعمال السمع والبصر والعقل حتى يهتدى الإنسان عن طريقها الى الحق والحقيقة، ويكون الحق واضحاً عنده والحقيقة ثابتة لديه: قال تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولا ... »

وفي هذه الآية الجامعة الكريمة أصول رئيسية هي المتبعة في أصول النظر العلمي، فلقد أمر بالمشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح، وأن على الإنسان أن يتمسك بما يصل اليه من حق أو حقيقة عن هذين الطريقين، المشاهدة والتفكير.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن الإسلام أكبر العقل إكباراً دونه أي إكبار، ودعا إلى تعظيمه وإجلاله والرجوع إليه دائماً قال تعالى: « وآتيناه حكما وعلماً » أي فقهاً وعلماً. وقال: « ولقد آتينا لقمان الحكمة. » أي آتيناه الفقه والعقل وإصابة القول في غير نبوة. وقال: « فاتقون يا أولي الألباب. إن في ذلك لعبرة لأولى الألباب » وقال: « وأشهدوا ذوى عدل منكم » أي ذوى عقل. « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » أي عقل، « لينذر من كان حياً ... » أي عاقلا، « ولقد بينا الآيات لقوم يعقلون، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »

وهناك آيات جامعات تدعو الإنسان إلى النظر في الكون والبحث في روائعه، وإلى جعل العقل أساساً للتحكيم والتفكير في الطبيعة على جلالها وعظمتها كما تستحثه على إطلاق تفكيره في السموات والأرض والوجود وما على الأرض ومن عليها. ولفت نظره إلى السماء كيف رفعها، وإلى الأرض كيف سطحها، والجبال كيف نصبها، وإلى الإنسان كيف خلقه، والأنعام كيف

أوجدها ، وإلى النباتات كيف أنبتها فقال تعالى : « وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » وقال جل وعلا « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت» وقال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وقال « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » . وقال « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافاً . » وقال « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباوعنباً وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا، متاعاً لكم ولأنعامكم ... » وقال « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى » وقال « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » .

ولا شك أن هذا النمط من الآيات الجامعات والأقوال البيّنات مما يرشد الناس إلى التفكير فى الكون وخبايا الأرض وأسرار الحياة والتطلع إلى خفايا الوجود . وبهذا ينطلق العقل البشرى باحثاً منقباً متطلعاً مما يؤدى إلى الوصول إلى دقائق الحقائق فى الوقوف على نظام هذا الكون وموجوداته على تعددها وتباينها وتعقدها .

كذلك كان الرسول ينظر إلى العقل نظرة كلها تعظيم وإجلال، فقد رأى فيه أنه أصل الدين وأساسه ، وأن لا دين لمن لا عقل له قال عليه السلام حين سأله علىّ عن سنته : « . . . والعقل أصل دينى » وأمر بالتواصى بالعقل والرجوع إليه ففيه النجاة وفيه الأمان . قال عليه السلام : « اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه . واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم » وبيّن أن الله يأخذ بالعقل ويعطى بالعقل ويثيب به ويعاقب على أساسه ، وما تم دين أحد إلا بالعقل ، وما عبد الله بشىء أحب إليه من العقل وعمل العقل .

روى لقمان بن أبى عامر عن أبى الدرداء أن رسول الله قال : « يا عويمر ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً ، قلت : بأبى أنت وأمى ومن لى بالعقل ؟ قال اجتنب محارم الله وأدّ فرائض الله تكن عاقلاً ، ثم تنفل بصالحات الأعمال تزدد فى الدنيا عقلا وتزدد من ربك قرباً وبه عزاً ... » وروى أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : « أثنى على رجل عند رسول الله بخير فقال كيف عقله ؟ قالوا يارسول الله إن من عبادته . . . إن من خلقه . . . إن من فضله . . . إن من أدبه .. فقال كيف عقله ؟ قالوا يارسول الله نثنى عليه بالعبادة وتسألنا عن عقله ، فقال رسول الله : « إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم » ويرى الرسول أن الحياء من مستلزمات العقل فلا يكونان إلا مع العقل ولا يسيران إلا فى كنفه .

والعقل نور جعله الله للدين أصلا وللدنيا عماداً به يميز الحق من الباطل وتعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات وعليه يقوم النجاح ويكون الفلاح . قال عليه السلام « العقل نور فى القلب يفرق به بين الحق والباطل» وقال « أفلح من رزق لبا » أى عقلا .

قدرى حافظ طوقان
